اسم الكتاب: بـــازل

اسم الكاتبة: شيماء أحمد

تدقيق لغوي: الباشا عبدالباسط

تصميم الغلاف: محمد دربالة

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم

الطبعة / الأولـى – ديسمبر ٢٠١٩ م

رقم الإيداع: 21973 / 2019

١١٤ ع جنوب الأحياء – السادس من أكتوبر

Arabiclibrary2017@gmail.com

Facebook.com/arabiclibrary2017

ت / ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

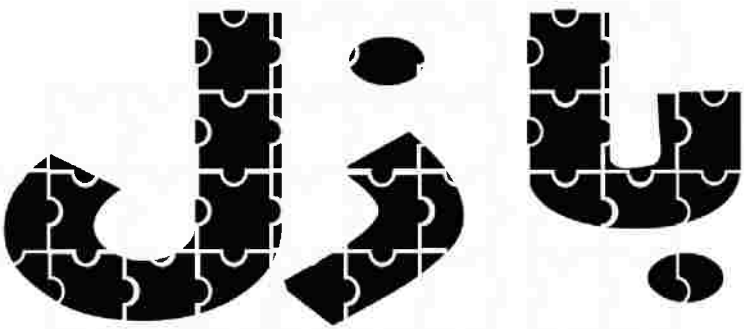

رواية

الكاتبة

شيماء أحمد

إهداء إلى "أنا"

قطعة تُكملني ولست أُكملها .

الفصل الأول

نشأت لا أدري شيئًا عمن أتوا بي إلى هذا العالم الموحش وألقوني به، طفلًا وحيدًا كل عالمه حجرة صغيرة بمنزل فقير ببناية مهترئة ، تكاد عطسة من أي عابر في الطريق تسقطها إلى جانب قدمه، ولكن إلى الآن لم يحدث؛ ربما لأن عابري الطريق نسوا درب منزلي هذا، لم أكن ذلك الطفل الشقي، المتطلب والمتمرد والكثير الأصدقاء، المشاغب، المحبوب من زملائه الذين على شاكلته ومعضلة جميع معلمي مدرسته، ولا هذا الحمل الوديع، زهر الحائط، الذي يحصل على حب جميع المعلمين وسخرية زملاء الصف، كلا، بل كنت شيئًا آخر لا أدري كنهه، وهم أيضًا لا يدرون، أحصل من الجميع على الدهشة والاستنكار والتعجب، أما الحب والكره فشيئان لا سبيل إليهما لدخول عالمي، أو حيز رد الفعل ممن حولي لأعمالي، لا يهم، ليس هذا ما أشتهيه أو يمكن أن يحدث فارقًا معي، تبًّا لهم جميعًا ولتلك المشاعر.

لنعد إلى غرفتي، يقولون إنها كانت بلون البحر والسماء عند ميلادي، ربما، لكنها الآن رمادية باهتة لا تسر الناظر إليها، لكنها تسرني أنا جدًّا.. ربما لو كانت زرقاء بالفعل لزهدتها وهجرتها، تحتوي على تخت صغير ومقعدين وطاولةٍ صغيرةٍ بديلًا لمكتب لم ولن يأتِ، ودولاب ثلاث درف، ربما هذا أغلى ما في الغرفة، وأكبر أثاثها حجمًا رغم عدم وجود ما يملؤه ويملأ فراغه الكبير... مصباح كهربائي صغير يغفو على حافة الطاولة، ولمبة شحيحة الضوء ترقد بسماء الغرفة.. حقيبة مدرسية كالحة اللون ملقاة بجانب التخت لأحملها مسرعًا عند الانتهاء من ارتداء زيي المدرسيّ وألقيها في الموضع نفسه عند العودة؛ لأعود لأخذها صباحًا، وهكذا دواليك، لدرجة أظن معها إن لم أفعل أنا ذلك ونسيت، لقفزت هي بذاتها إلى موضعها، زيّ مدرسيّ نائم على شماعته بداخل الدرفة الأولى وبضع بيجامات على الرف الأول، بالدرفة الثانية، أو بالأحرى كنزات وسراويل لا علاقة لألوانها وخاماتها بعضها ببعض، لا يجمعها سوى أنها لي، وقد تم تضبيط مقاساتها لتناسبني، بل إن هناك منها ما كان فستانًا أو تنورة، أو حتى جلبابًا وتم إعادة تدويره بعد انتهاء

صلاحيته؛ ليكون رداء لي.. وملاءات وأكياس لتلك الوسادة الوحيدة، يسكنون الرف الثاني، بالتأكيد إن سألتني رأيي لقلت لك: إن جميع تلك الأشياء كانت تكفيها درفة واحدة، ولا داعي لهذا التوزيع السريالي الجميل، ولكن هذا حال كل مصري وكل بيت مصري يعشق أن يجعل النملة فيلًا، وأن يتشدق بما ليس لديه، وأن يشعر بأن لديه كل شيء، وإن لم يكن في يده سوى حفنات قليلة من هواء، ستقول: وما علاقة قولي بذلك التوزيع؟.. أقول لك إن ذلك التوزيع مفاده جملة واحدة يريد أن يقولها لك صاحبه: أنا لدي الكثير، انظر.. كل درفة بالدولاب بها شيء، أليس كذلك؟ انظر.. انظر، وهم جميل، وقبل أن تتهمني بالبطر وكون هذا رضا وروحًا جميلة سوف أختصر عليك ذلك الطريق الموعظيّ الرائع بجملة واحدة، الواقعية.. أين هي منا؟! لا داعي للتكاذب والادعاء، ولا داعي للشكوى، كن صادقًا.. واقعيًّا.. هل هذا صعب، عسير؟ لا أدري..

لنعد إلى غرفتي ونترك هذا الحديث الجدلي جانبًا، تحتوي أيضًا غرفتي على مرآة صغيرة تقبع بجانب باب الشرفة فوق طاولتي المكتبية،

يمكنك أن تعتبرها أداة تعذيب أو تحفيز بموقعها هذا كما تشاء ويشاء عقلك، لكني أعشق موقعها هذا جدًّا، وصندوق صغير أسفل تلك الطاولة نفسها يحتوي على ألعابي، كرة وبعض المكعبات وسيارة صغيرة حمراء اللون، وهارمونيكا وألعاب جلدية، تلك الخاصة بصغار السن، وسبع كرات زجاجية، تلك المسماة "بلي" بكيس بلاستيكي صغير لكي لا تضيع وسط بقية الألعاب، أما حذائي المدرسيِّ وخف النوم فكلاهما أسفل تختي لأخلع هذا وألبس ذاك بمجرد ملامسة قدمي لأرض الغرفة عند الصحو أو الإياب من المدرسة، أما المشط فدائمًا ما أضعه أسفل الوسادة لكي أسحبه من مكمنه بأسفلها عند الانتهاء من ارتداء زيي ومن ثم أضعه بجيب بنطالي؛ فأنا من هؤلاء الذين يصففون شعرهم كل فينة وأخرى.

كبرت الآن وها أنا صرت ذلك المحامي المخضرم القادر على ربح القضية ببضع جلسات قليلة، وأصبح لدي مكتب كبير والكثير ممن يعملون تحت يدي وإمرتي وأنا بعد لم أتعد الخمسة والعشرين عامًا، قد تتساءل.. وكيف هذا بعد ذلك الماضي الجليل الرائع؟ الإجابة بسيطة..

كان لدي تلك القدرة والمقدرة العجيبة على معرفة ما ينقص الصورة ويُكملها.. نعم فأنا أرى أن كل الكون لوحة بازل كبيرة ، كل جزء يكمل الآخر، كل منا له رابط مع الآخر ودور لا يُرى إلا عند اكتمال الصورة، أما أنا فأراه قبلها لاعبًا يحمل القطع في يديه ويحفظ مكان كل قطعة.. إلا حياتي أنا.. دومًا كانت لوحة بازل ناقصة، ودومًا لا أرى ما ينقصها، فقط أشعر بذلك الفقد.

لنعد إلى حياتي أو فلنقل إلى دربي ومسيرتي الرائعة، ما أن أنهيت دراستي الثانوية، وبرغم مجموعي المرتفع، اخترت تلك الكلية التي يدخلها الجميع، وليس كليات القمة، ظنني الكثيرون مجنونًا أو أخرق ،وغرقت في موجات عالية من التهكم إن كانت تلك الكلية هي مرادي،فلمَ هذا التعب والمذاكرة والسهر والمجموع الكبير؟! في حين أن ساعات قليلة من من المجهود كان ستضمنها لي.. حمقى لا يدرون شيئًا، من قال إنها كلية قليلة؟! وإن جهدي بلا طائل أو عائد؟! إنني بما فعلته قد ضمنت الدراسة المجانية ومنحة التفوق واهتمام الجميع بي، وأيضًا لست أنا من أرضى بالقليل ولدي إمكانية أخذ الكثير، بل وكل شيء

وليس بعضه، وهذا ما صرت عليه وصارت عليه حياتي، فقد أنهيت جميع سنوات دراستي بتقدير امتياز، وكان يمكنني الحصول على أحد مقاعد التدريس بالجامعة، غيرأن هذا لم يكن مرادي،وظيفة روتينية وراتب شحيح وطلاب ساخطون على كل شيء، لا يحوز شيئًا مما أقول اهتمامهم سوى "الملغي من المنهج"، بل اهتمامي أن أكون ذلك المحامي المرموق الذائع الصيت القادر بجلسة واحدة على قلب موازين القضية والعدالة، أن أتحكم بمصير هذا وذاك، سمِّني ما شئت وانعتني بما شئت ولكن هذا ما حلمت به وحصلت عليه، ولذلك ذهبت لذلك المحامي الكبير للتدريب.. كنت له كظله.. أنفاسه.. سيجارته.. قداحته.. سلسلة مفاتيحه، لا أفارقه من المحكمة إلى مكتبه وحتى منزله كان لي نصيب في دخوله، سمِّها الصدفة.. الحظ، لكن أنا أراها إذا أردت شيئًا بشدة تكاتفت كل الأمور والظروف ليكون لك، ولكن قبل كل ذلك أنت نفسك.

الفصل الثاني

ها أنا جالس الآن خلف مكتبي الضخم الذي يعلوه اسمي على تلك القطعة المعِدنية ذات اللون الذهبي بخط منمق بذاك اللون الأسود اللامع الذي يجعل من اسمي نجمات تتناثر على سماء ذهبية، مرتديًا حُلَّتي الزرقاء، تاركًا ذلك الچاكيت الإيطالي التصميم الخاص بها متأرجحًا خلف ظهر مقعدي؛ ليشاركني أرجحتي المُتَّئِدة على أنغام السيمفونية العاشرة لبيتهوفن، يرن هذا الجهاز القابع بجوار يدي اليمنى.. ومن ثم صدور صوت سكرتيري خريج تلك المدراس الأجنبية العريقة، يخبرني بحضور موكل جديد إليَّ وعدم أخذه موعدًا مسبقًا، ولكنه رغم ذلك يصر على الدخول، فأهم بالرفض القاطع والحفاظ على نظامي الصارم، ولكن صافرة عقلي، تلك البُوصلة وذلك القرصان الذي اقتنص كل السفن والكنوز كلما تبعته لم أقدر على مخالفتها بعد صدور نغمتها الحبيبة الآن، ولذا فليذهب النظام إلى الجحيم، ومن ثم يعلو صوتي آمرًا إياه بإدخاله.. ولكن بعد انتهاء مراسم

الترحيب المعهودة من مشروب ساخن كان أو باردًا واحتسائه.. حتى يتسنى لي خلال هذا الوقت الاستعداد لملاقاة ما يحمله القدر لي، وصافرة عقلي القرصانية، تمر دقائق قليلة فيحمل بعدها هواء غرفتي عطرًا سالبًا للعقل.. مالكًا لمفتاح إمبراطورية الجنون.. لا أدري، أتعانق حواسي فاكهةُ الجنان أم ورودٌ من رياض السماء وكل بقاع الأرض، أم السعادةُ اللانهائية، أم الأحلامُ المستحيلة، أم تلك الذكريات التي تحمل زخات المطر وموسيقى حكايا الجدات، ودفء عناق الأم، ونكهة السكر التي تحملها القبلة الأولى ومواسم الحنين والفرحة وتَراقُص القلب دون موسيقى وتَكَسُّره في رقصة طويلة تحمل عنوان الحب الأول، تهادت أمامي برقة وعذوبة وقوة، لقد اجتاحتني من مفرق شعري لأخمص قدمي فأجدني صامتًا أمامها عاجزًا عن النطق، ليخرجني من تلك الفقاعة سكرتيري بقوله بلكنته الواضحة:

- سمر هانم.. أستأذنك، ثم يغلق الباب خلفه ويتركني لكنزي لأقف مادًّا يدي مصافحًا إياها، ومن ثم مراسم الترحيب المعهودة من

جمل ولزمات هي ..هي لا تختلف ولا تموت، تنتهي بجلوسها أمامي واضعة قدمًا على قدم لأبادرها الحديث بسؤالي لها:

- أهي قضية خلع أم حجر أم كلاهما معًا؟ لتظل فترة من الوقت صامتة، فقط تظل ستائر عينيها تعلو وتنخفض، وأنامل كفيها تنقر كل منهما الأخرى كنقار خشب وشجرة، مشكلين معًا سيمفونية من نوع خاص، لتجيبني بنبرة لا تخلو من الدهشة:

- كيف علمت بذلك؟ فيبدأ ردي عليها بضحكة عالية أُتْبِعها بجملة:

- سؤال لا يُسأل، قد أتغاضى إن صدر عمن لا يعرفني أو من لا يمتلك ذكاءكِ، أما أنتِ فبمجرد وطء قدميكِ حجرتي قد صرتِ تعلمين من أنا جيدًا؛ ولذا كيف يأتي هذا السؤال منكِ؟! امم بما أنكِ تلك المرة الأولي لكِ هنا ؛ سأضرب بِنُظمي وقوانيني الصارمة عُرضَ الحائطِ وسأجعلها جلسة عفوية لا يحكمها قانونٌ أو نظامٌ أو قاعدة، لتنظر في عيني قليلًا كأنما تسبر أغواري بتلك النظرة المتأنية والوازنة لي ولقولي لترد عليَّ:

- صدق من قال، ليست العبرة بالعمر؛ بل بالعقل والفعل، ومادامتعفوية إذًا؛ سأبدأها أنا بألقاء جميع أوراقي، قد كنت جهزت الكثير من السيناريوهات والحبكات لألقيها أمامك، ولكنك فُقت توقعاتي، ولذا سأخبرك الحقيقة وحدها دون مواربة، لأرمقها بنظرة لسان حالها يقول وهل تظنين من هو مثلي ستأخذه كلماتك أو ممن يرون وجهًا واحدًا للحقيقة؟!.. تبخسينني حقي ثانية وتهينين ذكائي، وكأنما قرأت وسمعت قولي جيدًا لتسرع بإكمال حديثها قائلة:

- أو بالأحرى ، أحد وجهي الحقيقة، فدائمًا للحقيقة أوجه كثيرة، وجه لكل طرف مشارك وصانع بها ولها، لأرسم تلك البسمة الغامضة على شفتيَّ:

- حسنًا، فلنبدأ بقضية الحجر، ما أسبابك لرفعها؟ فتجيبني:

- هو سبب واحد ولكنه قلب حياتي رأسًا على عَقِب، أبي..هذا الأب الحنون الفائق الذكاء والحنان والفطنة والحُنكة، فمنذ عام واحد بالتمام والكمال صار يهذي ويردد عبارات لا يصدقها عقل منها:

" لست من تظنين، يا لظلمي! أين أنت صغيري ووحيدي؟ أذبحتك أنا أم ذبحت نفسي بيدي؟ كيف، كيف سولت لي نفسي ما اقترفت؟ ويحي من فعلي وقلبي وروحي وقسوتي الغاشمة! ..."

وعندما أقترب منه برفق ماسَّة كتفه مستفهمة عمَّا يقول أو عن حاله يدفعني بقوة وازدراء ناعتًا إياي بأقذع الألفاظ، فأفر مبتعدة باكية، فيشيعني بنظرة لها مفعول الخنجر السام، ومن ثم يعود ليختلي بنفسه في غرفته الزرقاء، في البداية ظننت أنها إحدى نوبات كبار السن وستنتهي، لكنها لم تنتهِ؛ بل زادت ووصلت إلى حد تهديدي بالحرمان من الميراث والتشكيك في نسبي، هل تتصور ذلك؟! أب يطعن في بنوة ابنته له!

فقاطعتها:

- قلتِ إن هذا منذ عام، فلمَ الآن؟!

فردت: لأنه نفذه.

- ماذا! أتقصدين أنه...

- أجل، قام بتغيير وصيته، ولقد علمت بذلك أمس صباحًا من محامي العائلة.

- حسنًا ولِمَ؟

قاطعتني ثانية: إنه لن ينفذ مطلبي ويقوم بأمر كهذا، فهو صديق لأبي، هذا أولًا، ثانيًا يناهزه عمرًا، وبالتالي مثل هذا المطلب مرفوض بالنسبة إليه، فهو يرى من حق الآباء فعل ما يشاؤون، وواجب على الأبناء الطاعة دون عصيان أو تمرد.

- ولِمَ أنا؟

ضحكت هي تلك المرة قائلة: سؤال لا يُسأل، ربما من لا يعرفني ولا يملك ذكاءكَ لتغاضيت، ولكن أنت ..إنك بمجرد رؤيتك لي يُفترض أن تكون علمت قدْري جيدًا، ولكن بما أن تلك المرة الأولى لك سأكتفي بما قلت، لأعود إلى الخلف ليتعانق ظهري والمقعد أكثر قائلًا:

- يا لكِ من امرأة!

فترمقني بتلك النظرة الكاسحة قائلة: أغزل هذا؟ فأجيبها: فلتظني ما تريدين، فللحقيقة أوجه كثيرة، لتستدير بسائر جسدها محدقة بي بنظرة لم تمر عليَّ سابقًا قائلة: يا لك من رجل!

فأرد واضعًا ذراعي بجوار ذراعها وكتفي يكاد يداني وجهها قائلًا: أعلم.

ليعلو صفحة وجهها لون الغروب الدامي وتتألق عيناها بلون فسفوري متفرد فأرى انعكاسي فيهما، وجه حليق الذقن، شعر أسود فاحم، عينان بلون الرماد أو السماء عند نومها لا تدري أهي سوداء أو زرقاء أو سماوية فاتحة واسعة نائمة، تعلوها نظرة النمر، مزيج بين الهدوء والسكينة والترقب والخطر.. أنف مستقيم دقيق لا تشوبه شائبة، يغفو أسفله ثغر مرسوم بدقة ونعومة وقوة يخفي بريق لؤلؤ يخطف الأبصار، ولكن يعيب نظمه نابان كثيرا الشبه بأنياب مصاصي الدماء، ولكن صغر حجمه يخفيهما، بشرة بيضاء بجانب فحم الشعر كأنما ترى الليل بجوار النهار، وسيم أنا؟ أجل جدًّا.. ولكن ما ميزني ليس هذا؛ بل عقلي، وسأظل أفخر به، أما ملامحي فليست من أسباب فخري، فلا دخل لي

بها، أما عقلي نعم وذلك لأن كل الدخل لي فأنا الذي أستخدمه وأوظفه وأملؤه وأذخره ليكون سلاحي القاتل، لنعد لتلك الجلسة الحامية والتي قطعت حوار النظرات فيها بقولي:

- إذًا فالمعطيات الآن، أب تغير منذ عام بالتمام والكمال، وصية جرى تغييرها، وصديق عائلة ومحامٍ أكد ذلك ولا سبيل لربحه في صفنا؛ فهو طرف محايد لن يحابي طرفًا على طرف، وإن حدث فلن يكون أنتِ هذا الطرف، حسنًا، دعي الأمر لي وسأخبرك بقراري ولكن بعد مقابلة والدك.

- ماذا؟ كيف هذا؟ أجننت أنت؟! عذرًا... أقصد..

وتبدأ في نوبة من التلعثم يتبعها احمرار يعلو الوجه يتزامن مع صدور ضحكة زلزلت جدران غرفتي وكيانها لتنفجر حانقة:

- كلا لست آسفة أنا، إنك بالفعل مجنون، ولا أبالغ في قولي إنك دون عقل.

فأرد بهدوئي القاتل: ظني ما تشائين، ولكن هذا مطلبي حتى أقرر تسلم قضيتك.

- ماذا؟ أفهم من هذا أنك إلى الآن لم تقرر!

- أجل لم أقرر، إنني سمعتك، أو بالأحرى سمعت أحد وجهي الحقيقة، ولن يكون قراري صائبًا إلا بإكمالي الحقيقة ومعرفة وجهها الآخر.

- حسنًا، سأسير معك في دربك للنهاية، ولن أرفض هذا المطلب، ولكن ألم تفكر ماذا سأخبر والدي عنك، وعن السبب الذي دعاني لجمعكما معًا.

فكرت...

- آها، حسنًا، جيد جدًّا.. إذًا أرجو منك إخباري إذا لم يكن لديك مانع.

فأرفع يدي اليسرى نافيًا وجود مانع قائلًا: كلا، بالطبع ليس لدي أي مانع، إن السبب لا يشوبه أي صعوبة أو تعقيد السبب بكل بساطة قضية الخلع.

- ماذا؟! لتفغر فاها على اتساعه وعيناها تكادان تنفجران.

لأزيل هذة الحالة بقولي: سمر، أتسمحين لي بمناداتك دون ألقاب؟ لأنجح في نقل تعبيرات وجهها من الدهشة المفرطة، لغنج الأنثى وخجلها الفطري مع تلك الهالة الخاصة بثقتها بكيانها ككل، لتنطق بعذوبة تحاكي أوتار النعيم وشدو القبرة والحسون ورقَّة الأزهار.

- لكَ هذا..

فأكمل:

- بالتأكيد امرأة مثلك تملك هذا المقدار من الحسن والعقل والنسب العريق لديها شريك، وبما أنك تقيمين مع والدك منذ عام كامل بدليل ملاحظتك له ولهذا التغير؛ فإنكِ على خلاف معه، واهتمامك بمعاملة والدك أكثر من تواجده معك، فإذن أنت أخذتِ قرارك بالانفصال، بل لقد برمج عقلك ذلك إلى أفعال بدأتِها بحضورك إلى منزل العائلة، وحرصك على مكانتك به، وممارسة جميع طقوسك وأمور حياتك دونه، ولذلك لن أجادل ولن أدخل في تفاصيل كثيرة، بل سأخبرك بقبولي لتلك القضية، وسأترك أمر التفاصيل الضرورية الخاصة برفعها إلى أحد محامي المكتب، هي بعض الأسئلة البسيطة التي سيوجهها لكِ فتجيبين

عنها، وبعدها لن نزعج رأسك ولا أذنك بأيٍّ من أمور المسائل القضائية وغيرها، هي فقط جلسة وبعدها سيكون لك ما تريدين.

حسنًا جدًّا، هو ذلك، طمأنت قلبي في شيء، وأحرقت جميع حواسي في الآخر.

حواسك!! وماذا عني الجالس أمام شمس حسنك وجهًا لوجه؟! إذًا فأنا احترقت الآن آلاف بل ملايين المرات.

تضحك في دلال وتنهي الجلسة قائلة: حسنًا، تعادلنا، وقبلت أنا جميع مطالبك، لتفتح حقيبتها السوداء "ماركة غوتشي" مخرجة هذا الكارت الذي يحمل أرقام هواتفها وعنوان مكتبها ومنزلها، فأضعه أمامي وأسحب أحد كروتي أنا الآخر من تلك العبوة الخاصة بهم على مكتبي وأعطيه لها، لنقف في نفس اللحظة ويمد كل منا يده مصافحًا الآخر، ومُنهياً تلك الجلسة الحامية المذهلة.

الفصل الثالث

أعود إلى منزلي محملًا بغذائي السريع وهذا الكم الهائل من الأفكار والخيوط المتداخلة، بل كرة الخيوط التي تحتاج إلى ذلك القط الماهر بمخالبه لفك تشابكها أو تعقيدها أكثر وأكثر، لا أعلم، أصعد درجات البناية التي أقطنها بذلك الحي الراقي عوضًا عن المصعد، يمكن أن تسميه تدريبًا أو تمرينًا لعضلات جسدي وعقلي معًا وتصفيته من كل الضغوط والتوترات اليومية الناشئة عن عملي المتعدد الوجوه وكل شيء، أضغط على زر الإنارة المتواجد في منتصف الجدار في هذا الطابق الذي تحتله شقتي، نعم؛ فالدور بأكمله ملكي، ليشتعل الضوء كشمس في منتصف النهار، أضع على إثر ذلك يديَّ بجيب سترتي الداخلي وأخرج المفتاح لتلثم شفاه الباب أطراف أنامله وتبدأ تلك المداعبة الحانية منتهية بدخولي إلى مملكتي ووضعي للغداء على الطاولة، ومن ثم تلك الطقوس من "دُش" سريع وتبديل ملابس انتهاءً بتسخين الطعام بهذا المسمى "ميكروويف" والتهامه ليتبعه فنجان القهوة العربي وحبات

التمر على أنغام الموسيقي العالمية وذلك المقعد الهزاز بالشرفة، متتبعًا حركة السيارات والأناسيِّ، ورؤيتهم أشبه ما يكونون بحبات السكر والنمل، فمن هذا العلو الشاهق كل شيء يكون بضع نقط صغيرة على صفحة واسعة.. محب أنا للأدوار العليا كقيمتي وارتفاعي الآن بعملي وجهدي وعقلي، تنتهي تلك النزهة الشاهقة بدخولي إلى غرفة مكتبي الخاصة وإخراجي لتلك المفكرة الصغيرة والبدء في التخطيط بها من أجل تلك القضية المزدوجة، وأضع عنوانًا لها، مملكة الجنون، ثم أقوم بشطب العنوان عبر طعنه بجرة من قلمي تمتد أفقيًّا من بدايته لنهايته لتخترقه في المنتصف تمامًا، وأكمل وضع تلك المعلومات التي حصلت عليها من سمر بجانب ما أبلغني به المحامون العاملون لديَّ من معلومات تم معرفتها منها شخصيًّا وأخرى هم بأنفسهم ، بتلك الطرق الخاصة بكينونتنا وعملنا كمحامين، لأنتهي بوضع خريطة صغيرة وشبكة من المعلومات والخطوات الواجب القيام بها لأغلق إياها راضيًا، فتتسلل ابتسامة صغيرة هانئة ووادعة لتحتل ثغري وتمتد إلى قلبي لتحثني على النهوض مربتًا عليها وتاركًا إياها على سطح المكتب كأنما

بذلك أنشر ضوء القمر بأرجاء مملكتي، لأسير بضع خطوات وأعود ثانية باتجاهها حاملًا إياها ككنز صغير وخطير وأضعها بجيب "روبي" الأسود ذي الخطوط الحمراء على أطرافه كمنامتي التي يعانقها الآن، لأدلف إلى حجرة نومي وأخرج تلك المفكرة برفق كعصفور صغير وأضعها بجانب رأسي على ذلك الكومود الذي يجاور تختي، ومن ثم أخلع "روبي" لأبدأ رحلة النوم والراحة البيضاء كسحب السماء القطنية وكنزات صغار السن وشرابهم الذي يشبههم في النعومة والدفء لأكون الآن أحدهم ولا ينقصني سوى هذا الشراب وأفكر بإحضاره؛ بل أهم بذلك ولكن تسبقني كفّا النوم لتسلبني وعيي وتلقي بي بأمواجه الحانية الرائعة لأغرق في واحات أحلامه الوردية منها ، والذهبية، والفيروزية، والسافانية كعينيها ذواتي اللون الأخضر، بل درجة ليست كسائر درجات الأخضر؛ بل هي شيء آخر، شيء يخصها وحدها، هل رأيت من قبل عينين تتحولان إلى اللون الفسفوري عند الغضب؟! إذًا ماذا عن الهدوء.. السلام.. الحب.. الشغف؟! ماذا عن السعادة؟! لقد بدأت بالتسلل إلى مدينة نومي ومملكة أحلامي.

أستيقظ كعادتي في الرابعة صباحًا بادئًا يومي بصلاة الفجر ومن ثم الإفطار المكون من بيضتين، عيون كما أحب، والجبن الأبيض القليل الملح ومربى التمر وبعض شرائح من الطماطم والخيار والفلفل الملون والكثير من الزيتون المستورد كبير الحجم، وفنجان القهوة المضبوطة ذات البن الغامق التي أختم به إفطاري، ثم أبدأ طقوس يومي من ركض لمدة ساعة والسماعة الخاصة "بالإم بي فور" تصدح بأذني، مرتديًا هذا الزيِّ الرياضيِّ على دروب حيي الراقي وحيدًا إلا من رفقة بعض حراس العقارات والعائدين من صلاة الجماعة بمسجد الحي، لأرد تحية بعض من يلقون التحية برفع يدي اليمنى عاليًا وتلك التمتمة التي يتخللها أخذ النفس المتقطع والتي تفهم على أنها رد التحية المتعارف عليه من جمل لا تتغير ولا تخرج عن نموذج أو ثلاثة نماذج لا غير، لأعود إلى مملكتي لآخذ هذا "الدُّش" الدافئ وتبديل ملابسي ومن ثم الاستمتاع بكوب من عصير البرتقال الطبيعي وأخذ حقيبة العمل المجهزة من الليلة السابقة متجهًا إلى الباب، وقبل أن أهم بالمغادرة أتذكر تلك النائمة على الكومود لأعود سريعًا للإتيان بها ووضعها بجيب سترتي الداخلي،

لأكمل طريقي وصولًا لسيارتي الفارهة "بي إم دبليو" زرقاء اللون، نعم لقد صرت أحب هذا اللون؛ فهو يرمز إلى السماء التي أحلق بها الآن، سماء نجاحي وطموحي الذي طال عنان السماء، لأصعد بها واضعًا حقيبتي بجانبي، فاتحًا النافذة التي تجاورني وتاركًا التي تجاور حقيبتي مغلقة، لدي نظام التكييف الحديث بسيارتي وغيرها من أمور لكني أحب هذا الهواء بكل ما فيه، لست ممن يغلقون على أنفسهم أبراجهم العاجية وفقاعاتهم ذات رياش النعام، أحب الرفاهية ولكن لا أنسى هذا الكدح والتعب وتجرع حفنات التراب، بل والنظر إلى أني حفنة من تلك الحفنات، كل ذلك جعل مني حازم الغمراوي، اسم ترتعد له البشر قبل حفنات التراب، اسم تركع أمامه مواد القانون قاطبة وكبار رجال الأعمال والإجرام قبل صغار المجرمين ومسجلي الخطر.

أصل إلى مكتبي وأترجل من سيارتي حاملًا حقيبة عملي ليخف إليَّ موظفو الأمن الخاصون بالبناية لأبعدهم عن التقاط حقيبتي بإشارة من يدي وسؤال عن المصعد الخاص بي لأدلف إليه فيغلقوه مودعين إياي بعبارات التملق والتزلف وتلك الأسطوانات التي تتلى على مسامع من

هو في مكانة عالية حتى وإن لم يكن يستحقها؛ ففي وجوده بها يجعل تلك الأشياء حقًّا شرعيًّا له، نحن من نصنع الأصنام ونعبدها، متى نتوقف عن إعطاء صولجان القوة وعصا التحكم في أقدرانا لكل من ملك حفنة من المال أو السلطة؟ ونعلو به فوق المحاسبة ورؤيته كما ينبغي أن يكون ويستحق، أظل غارقًا في أفكاري وتحليلاتي ليخرجني منها صوت المصعد معلنًا الدور الحادي عشر، آخر دور في البناية وحيث يكون مكتبي أيضًا، أدلف إليه دون نظر إلى شيء سوى باب غرفتي غير عابئ بمكاتب من هم تحت إمرتي فجميعهم لم يأتِ أو بالأحرى لم يحن موعد مجيئهم بعد، أسبق أنا الجميع في كل شيء إلا صابر، هو الوحيد الذي يسبقني، أجل هذا الرجل الستيني بشوش الوجه طيب القلب والصوت المعانق الحنون لا أتصور بداية ليومي خيرًا من: "ها قد أتى ابني الغالي".

- صباح الخير.

- كل الخير أنت.

لأشعر بكلماته تقبل قلبي قبل وجهي وروحي لأقترب من مملكته الصغيرة وألثم رأسه الغالي ليخفضه وتكاد البسمات تتقافز من عينيه وكفيه وخديه، وردات من نور تحط على قسمات وجهه، سماء تنيرها قبلتي، ويبدأ الحديث متلعثمًا:

- ها ماذا أسقيك اليوم يا بني، فلتأمرني؟

- حاشا لله، أيأمر الابن والده حتى آمرك أنا؟!

- حفظك الله.. حفظك الله وأدامك لي، يا ليت كل المحامين مثلك.

- بل ليت كل البشر مثلك، خير وسعادة وحنان منزه عن كل شيء.

- كلا، لن أقبل بجلوسي هكذا، أسعدني وتقبل صنيعة يدي.

- إن كان هذا فأقبل، ولكن لدي شرط ، تحتسي معي.

- حسنًا، هو ذلك ولك الاختيار.

- حسنًا، أريد هذا المشروب الطفولي اللذيذ.

- طفولي ولذيذ! أهو ما أظن؟

- أجل ، وهل هناك غيره؟!

- ما أغربك اليوم، أعرفك منذ ما يقارب ثماني السنوات ولم أرك في يوم منهم تحتسيه أو تقترب منه أو يدك تمتد إليه ولو على سبيل الخطأ.

- لا أدري يا عم صابر منذ الأمس وأنا مطارد منه بصورة لا تتخيلها، أصبح شمس صباحي وبنات فكري، بل صرت هذا الرضيع الذي لا يرى سواه.

- حسنًا، فلنعترف إنه هاجس لطيف، يكفي أنه سيقلل من مرات احتسائك لهذا السم المعدل للمزاج المسمى بمشروب العمق على أنغام الرائعة فيروز، لا أنكر روعة صوتها، لكن ما علاقة هذا بذاك؟ وما دخل تلك الكلمة بكل ذلك؟ جيل غريب.

لتعلو ضحكتي وأقترب منه ممسكًا بكتفيه وهامسًا في أذنه:

- فلتخبرني أيها الرجل الحكيم من أين أتيت بكل تلك المعلومات الشديدة السرية؟، أزهدتَ أمَّ محمد وسرت تصادق عصفورة جديدة من صديقات ولدك الحبيب؟

لينفجر ضاحكًا..

- أنا.. أنا! يا لتفكيرك المحلق والروائي المميز، ولكن استحلفك بالله لا تخرجه أمام نصفي الحلو؛ فكلهن ناقصات عقل، ومزحة صغيرة قد تراها واقعًا وتهد الكون فوق رأسي، بل لا أبالغ بقولي ربما تجعلها حقيقة وتجعلني أنا نفسي أراها وأقر بها، إنَّ كيدهن عظيم ومكرهن أعظم.

لأرد أنا:

- وحنانهن أعظم وأعظم، وأنت تملك مفتاحه أيها الأريب، آه، ماذا قلت منذ ثوانٍ؟ أجل نصفك الحلو، يا لذكائك، إن تلك الكلمة مع بسمتك البشوشة تنسيها كل عالمها أيها الدنجوان الخطير، وأغمز بعيني لتعلو ضحكته ويغادرني إلى مملكته قائلًا:

- إنك اليوم في أروع حالاتك ، وإن لازمتك لن نقوم بأيِّ عمل أيها المهزار، ولذا سأعد مشروبك يا طفلي الشقي.

- وأنت فلتحلق في سماء السعادة وشمسها المشرقة على قلبك اليوم.

أتركه لعمله وألتقط حقيبتي لأسير بضع خطوات بعدها أكون أمام باب غرفتي،أفتحه وأدخل عريني وأضع الحقيبة فوق المكتب وأخرج

بعض الملفات أمامي وأنزلها ثانية أسفله في ذلك المكان المعد لها، أخلع سترتي ذات اللون الكموني لأظل بقميصي الأسود والبنطال الكموني لأدور بضع دورات بكرسيّ ثم أقف لأضع سترتي على ذلك المشجب أقصى يمين الباب، لأعود ثانية إليه مع اقتراب عم صابر واستئذانه قبل الدخول فأسبقه أنا بفتح الباب وحمل الصحفة بأكوابها عنه لأجده يفر ويعود مسرعًا حاملًا شيئًا يواريه خلف ظهره وتكشفه يداه وتلك النظرات الطفولية الضاحكة والناطقة بعينيه لأضع يدي على صدري متقابلتين قائلًا:

- ها، ماذا أحضرت لي اليوم؟ لا داعي للإنكار فأنا رأيت كل شيء.

- ماذا رأيت؟ هل تعلم؟ منذ متى؟ من أخبرك؟

- على رسلك، لست رجلًا خارقًا،ولكن لأجرب ماذا رأيت؟.. رأيت فرحة تفوق الوصف فرحة طفل يحمل لعبته الغالية، هل تعلم؟ وإجابتي من منا يعلم كل العلم؟ كلنا جاهل وعلمنا قاصر وضئيل إن قيس بمقدار ما لا نعلم، منذ متى؟ منذ فرارك أيها الفهد من أمامي، من أخبرني؟ عيناك تلك أخبرتني، ها، أيها الشقي هل اكتفيت؟

ليضحك كثيرًا مرددًا:

- شقي.. شقي أنا؟! حسنًا، يا ولدي السعيد تفضل تستحقها.

لأمد يدي مستقبلًا يده لتعانق أناملي وأنفي علبة ورائحة تمس كل شغاف قلبي وروحي وذائقتي المميزة حتى أكاد أتقافز في موضعي وأظل أصيح:

- أهي ما أظن؟ أهي؟

لأغمر كفي ووجهي كاملًا بل وروحي في أمواج اللذة ومن ثم أعود بعد أعوام من لذة لحظية ممسكًا بسعادتي السمراء الجلاب الصعيدي أجل سري وعشقي المُسكر لكل حواسي من مهدي إلي لحدي .

تتناثر قطع أقدرانا على رقعة الحياة لتجمعنا وتفرقنا وتقلب طاولة علاقاتنا رأسًا على عقب لتبقى فقط الحقيقة الوحيدة، لسنا سوى قطع بازل يكمل بعضنا بعضًا لتتشكَّل اللوحة.

أحيانا يولد الحب ليموت، ولكن أتراه بالفعل فارق الحياة أم

أوجد حياة لا يقاربها موت!

القطعة الأولى

مرمر.. مرمر صغيري.. أين أنت؟ أين اختفى صوته؟! أهو نائم؟! ولكن لا؛ إنه عند صحوه لا يعود للنوم مرة أخرى إلا بعد ساعات وساعات، بل أيام من اللهو والشغب، أهو؟ يا لهف قلبي عليك.. كلا لن أظل هنا واقفة أتساءل؛ بل سأبحث عنك فورًا.

طفلييبي.. صدق حديث قلبي.. شقي أنت، أنت شقي، أتركك ثواني لأعود فأجدك على حافة النافذة، حمدًا لله، لقد أنقذتك اليوم، بل أنقذك قلب الأم الذي لا يغفل عن ولده ثانية، وإن غفلت العين ها هو يضحك، كأن شيئًا لم يكن، ماذا أفعل معك ؟ طفل غيرك إن حدث معه ما حدث معك من جذب وحمل فجأة، وقبضة قوية واعتصار بشدة لجسده لبكى بكاءً حارًا، لكن أنت لا، ماذا أفعل معك ؟ ماذا؟ ليضحك ثانية في وجهي ويقترب ممسكًا خدي وبالأحرى وجهي كاملًا معانقًا إياه ولاثمًا خدي، أنفي، ثغري، جبيني وعيني لأزجره ضاحكة، تلك تفرق أيها الشقي، ليضحك ثانية ويكررها لأحمله ضاحكة معه ومرددة:

"لا فائدة، أنت كما أنت، طفلي المختلف والمميز، ليقبلني تلك المرة على خدي بقوة ونشوة فائقة، يا لك من طفل!" في بعض الأحيان أشعر أنك تفهم حديثي جيدًا ليصرف ناظريه عني ويلقي برأسه على كتفي دون مبالاة أو نظر لما يدور حوله، يا ليت لي مثلك هذا الكتف الذي ألقي برأسي عليه! وهذا العقل الذي يحير الأكوان، نعم، أعلم يا صغيري أنك ذكي ذكاءً فائقًا، وأثق تمام الثقة في ذلك، أهو غرور الأم؟ فليسموه ما يشاءون، ولكن من لديها أنت يحق لها الفخر والفرح الأبدي، ليدير رأسه لي ويُنيم رأسي على كتفه الصغيرة، ما أرحبها كتفيك! ما هذا؟! أيمكن لمساحة لا تتعدى قبضة اليد أن تصنع ما تصنع وأحياه الآن؟! دُمت لي طفلي وحفظك الله من كل شرٍّ ومن كل عين.

ها أنا الآن أجهزه من أجل نزهته الشهرية مع والده والتي أنتوي عدم مشاركتهما إياها؛ فقد داهمتني آلامي مرة أخرى ولا أريد أن تضيع تلك النزهة على طفلي ووحيدي، ولا أبغي أن أثير قلقك يا نصفي وكلي، يا من ملّكتني مفاتيح النعيم والسعادة الراقصة من حولي والسابحة في دفء عناقه، أجل مرمر ابننا معًا، سأتحامل اليوم من أجلكم وسأرتدي

قناع الراحة والصحة وسأجعل عرس جارتي حجتي وأنت لن ترفض مطلبي وإن لم يحز رضاءك؛ فرضائي وبسمتي مطلبك وسعادتك، طرقاتك المتلاحقة على لحن تلك الأغنية التي جمعت قلبينا معًا "على فين واخداني عينيك؟" ترافقت مع انتهائي من تبديل ملابس كنزنا الصغير لأحمله بيدي اليمنى وأقترب من الباب لأفتحه بيدي الأخرى تسبقاني كفاه الصغيران لنفتحه معًا، لتعانق عيناك بسمته الممتدة وضحكاته الدافئة والمغردة لمرآك ، لتعانقه، بل تلتهمه بعناق طويل اختلطت فيه الأنفاس والقبل والضحكات والدموع، لأمد يدي رافعة صوتي دون أن يتجاوز أبواب آذانكم أنتم فقط:

- هيا إلى الداخل يا كنوزي الغالية، لا أريد أن تصيبكم العين ولو بخدش صغير.

لتدلف حاملًا إياه وما إن أهُمُّ بالاقتراب لأغلاق الباب تسرقني ذراعك مني.. من نفسي لتضعني بجوار قلبك بتلك الحركة البارعة، حيث أجدني غارقة في حبك وأمواجه الهائلة والمزهرة أجمل زهور الكون.. لأجدني في دفء بل دفئين، وعناق نعيمي بل عناقين، لتذوب

عيني في أتون هواك الشمسي، وتقطر أهدابها بكلمات قلبي وكلمته الصادحة، أحبك.. أعشقك.. أتنفسك، لترفع جوهرتنا إلى جانبك الآخر بعيدًا عني، لتقبلني قبلة حملت كل أشواق العمر.. الكون أشواق وجدت منذ ميلادنا إلى لحظة لقائنا هذا، لترن ضحكته بعد وضعه لإمضاء شفاهه على قبلتنا في سرعة خاطفة لترن ضحكتنا معه، وينطق كلانا:

- آه منك أيها الشقي!

لتصفق بكلتا يديك في مرح طفولي أثير لينطق والدك:

- زهرتي، لا تغلقي الباب قبل أن تأتي بهداياك وذلك العفريت الصغير.

لأقف برهة وأهم أن أقول ما يعتمل بصدري بخصوص ذلك الأمر، ليقاطعني بوضع سبابته على شفتي فأمد يدي لأرفعها، وقبل أن تصل أجد أصبعًا آخر قد أتى.. مرمر، فأتحول من الخجل والحيرة والحديث الذي يبحث عن درب لا يجده إلى الضحك ليرفع كلاهما أصبعه بعد أن سمعا في عيني قولي:

- إذًا لقد اجتمعتما عليَّ، حسنًا جدًّا.

فأذهب لجمع هدايانا وأضعها على المائدة، ثم أغلق الباب وأطير إلى المطبخ لوضع الغداء ليقف ويعدو خلفي مسرعًا فأثنيه عن ذلك بقولي:

- وذلك الشقي لمن نتركه؟!

وعندما يبدأ بقول إنه هادئ وإني أشنع عليه؛ أنفجر ضاحكة:

- بل إنك أنت الهادئ واللطيف.

لقد كان اليوم سيقضي نحبي ونحبه، ليكسو وجهه غيمة من الحزن والرعب:

- صه، لا تعيدي قولك هذا، أجننتِ؟! بالله عليك لا تعيدي ولا تكرري مثل تلك الأقوال على مسامعي، إنك تقتلينني بتلك الأقوال، خنجر ويخترق قلبي هي .

فأركض إليه معانقة له ولجوهرتنا ملثمة لجبينه ومعتذرة له ، ثم قمت بسرد ما كان من مرمر لتشتد قبضته على كلينا، ومن ثم النظر لطفلنا في عينيه قائلًا:

- إياك وتكرار فعلك هذا أتسمعني؟ إن كررته ثانية لن تراني مجددًا لأنني سأعرف أنك لا تحبني، وعندما أهُمُّ بقول أنه لن يفهم ما قال، ينظر في عيني ومن ثَمَّ ينقل نظره إلى عينيه فأرى ما يحثني على الصمت، أجل، لقد انهمرت الدموع من عيني مرمر ونكس رأسه برهة قصيرة ومن ثم أمسك كف والده بكلتا يديه وقبلها بقوة ليضعها بعد ذلك على خده، أو بالأحرى أسفل وجهه؛ لينيمه بأكمله عليه ليعانقه هو الآخر ويبكي معه، لأقف أنا الأخرى باكية مُديرة ظهري لهما ليجذبني ثانية ملثمًا رأسي قائلًا:

- يحق لك الضحك والفخر لا البكاء؛ فلديك طفل ذكاؤه يفوق المعتاد.

لأجيب مستاءة:

- طفل!!

ليضحك ويرد ساخرًا:

- كلا، بل رجل هو، اعذري نظري الضعيف.

- أذلك ما وصلك؟ كبير وصغير! أيها السخيف ليس هذا المقصود بتذمري؛ بل كون الكلمة خالية منا.

- وأخييرًا، لقد سمعتها.

- لأقف حائرة ماذا؟ ماذا تقصد؟ ما الذي سمعته؟

- تلك السبة الرائعة.

- سبة ورائعة! آه، لقد وقعت في عش للمجانين، بل في عنبر الحالات الخطرة بذاته.

- أعيديها ثانية.

- لا، لن أعيدها، أنا أكره نفسي عندما أفعل هذا بك.

- وإني أحبك مهما فعلتِ.

- ولكني لم أفعل شيئًا.

- ماذا؟! لا، إن كان على الفعل فهناك الكثير، ولكن إحقاقًا للحق بخصوص السب، فإني لم أسمع منك أي سباب حتى عند خلافاتنا القليلة، حتى وإن كنت ظالمًا لك، إلا هذه، ولكني أحبها، فلولاها ما عرفتك.

- يااااه، أما زلت تتذكر؟!

- وهل من أوصلني لكِ يُنسى؟ بل أي .. أي شيء كان سببًا في أن تكوني لي وأكون لك يُنسى؟!

- آها، ما أسعدني برومانسيتك المتدفقة، بحق إني سعيدة الحظ لامتلاء عالمي وكوني بأنهار الرومانسية وسحبها العامرة.

- أُسعدك بالرومانسية فقط وليس أنا؟!

- يا شقي، أنت ورومانسيتك، ألستما كيانًا واحدًا؟

- كلا اثنان ، وأنتِ فضلتها عليَّ، يا لجفائك وجحودك.

- جفاء وجحود! يا لك من قاسٍ.

- أنا.. أنا تنكرينني أولًا، وها أنت تظلمينني.

- ظلمتك أنا.. أنا ظلمتك؟! امم طالما تراني ظالمة وجاحدة إذًا فهنيئًا لك شد الأذن، وأقترب منه لأهُمَّ بشد أذنه فيضع الشقي الثاني بيننا لتمتد يده لخدي ويطبع أعذب قبلة عليه ليرتفع صوتي:

- لقد أنقذك صغيرنا، والآن فلتهدآ أيها الصغيران حتى أعد المائدة وأرجوك لا تدعه يغيب عن ناظريك.

أنتهيت من إعداد المائدة لأجدهما غارقين في اللهو بتلك الهدايا وأوراق تغليفها تناثرت في أرجاء الغرفة لأوقظهما من غفوة النشوة الدائرة وأعيدهما إليَّ بقولي:

- صنيعة يدي تناديكما.

ليقفز مليكي واقفًا مادًّا يديه لمرمر ليحمله فأنهيه عن ذلك قائلة:

- يكفي يا كلي، فلتذهب لغسل يديك من لهوك معه.

- وأنتِ وهو؟

- سنتبعك.

- كلا بل أنتما أولًا، "ليدز فرست" لا تجادلي..

- حسنًا.

فأسبقه وأنا أحمله وننتهي سريعًا ليبدأ هو ويعود ليجدنا بانتظاره وصنيعة يدي من أصناف الطعام المحببة له، "أرز معمر.. ملوخية بالجمبري.. مكرونة بشاميل.. دجاج مشوي.. شرائح البوفتيك.. السلطة الخضراء والمخلل، ولصغيرنا بيوريه البطاطس والبازلاء والجزر مع قطع صغيرة من الدجاج وبعض من الأرز المسلوق"، نتناول غداءنا والضحك والحب والدفء يظللون قلوبنا وأرواحنا قبل مائدتنا، لننتهي منه ولا ينتهي موج سعادتنا الجارف، لنغتسل مرة أخرى بعد أن ننتهي من ترتيب المائدة والعودة بالأطباق الفارغة إلى المطبخ، ليجلس بمرمر حتى أبدل ملابسي فأخرج إليه مرتدية ذلك الفستان السماوي بلون عينيَّ، واضعة الشال الحريري على كتفي ورافعة ليلي في تسريحة تشبه رقيقة أغنيتنا المحببة إيمان لأزينه فقط بنجمتين، نجمة على كل جانب وحذاء بلون ردائي ذي كعب عالٍ وحقيبة مناسبات باللون نفسه ، وبعض من لمسات مساحيق التجميل البسيطة، ملمع شفاه وردي وظلال جفون سوداء تظهر سماء عيني فتعلو تلك النظرة الآسرة عينيه

ليدغدغني دون مس ليتبعها بتلك الشهقة الخاصة بالإعجاب الشديد والمفاجأة، ولكنها مضاعفة تلك المرة؛ فهي منه ومن ذاك الشبل ليوقفني عن التقدم خطوة واحدة بإشارة من يده وركضه إلى أحد لفافات هداياه ليأتي بها بين يديه طالبًا مني فتحها لتعلو الدهشة وجهي ولكنني أستجيب إليه، وبالأحرى إلى نظرات عينيه ،لأفتحها فتخرج شهقة المفاجأة والإعجاب تلك المرة مني أنا، ما هذا؟ ألهذا الحد الترابط بيننا؟! إن العلبة التي بين يدي كانت تحوي طاقمًا مكونًا من قرط وقلادة وخاتم وسوار من الألماس الحر تتدلى منهم جميعهم نجمة تشبه النائمة على شعري لأظل أتقافز في مكاني صعودًا وهبوطًا كطفلة في الخامسة، ليمد يديه إلى يديَّ ويتقافز معي لينتهي الأمر بمشاركة الشقي الصغير لنا بطريقته وهو زحفه إلى تلك المنطقة الوسطى بيننا وقفزه هو الآخر مثلنا لنتوقف بعد أن يحل بنا التعب سقوطًا على المقاعد خلفنا، بعضًا من الوقت ليعود إليَّ مادًّا يده ليأخذني أمام المرآة ويقوم بإلباسي هديتي الرائعة قطعة قطعة ومع كل قطعة يكلل مكانها بقبلة لأذوب قطعة "شيكولا" بين أنامل قبلاته الساخنة التي كانت توشك أن تمتد وتنسينا

الكون، لأقطع درب النسيان أنا بجذب مرمر إليَّ وقولي له: فلتأتِ بطاقم ملابسه سريعًا وإلا فاتتكما النزهة.

- ماذا؟ فاتتكما! وماذا عنك؟

- كلا لن آتي معكما اليوم، فلدي حفل يجب عليَّ حضوره.

- ولكن..

- أرجوك، إنني أرتب له هذا الزي منذ فترة.

- ولماذا لم تخبريني من وقتها؟

- لأني أعلم أنك لن ترفض أمرًا فيه سعادتي وقد صدق حدسي بهديتك هذه.

- هديتي، ولكن لا يمكن لك حضور الفرح بهديتي.

- لماذا؟ ألأنها غالية؟ أتقصد أن من أذهب لها..

- لا يا حبيبتي ومليكة فؤادي؛ بل أخاف أن يصيبك مكروه من جرائها وبالأخص أني لست معك.

- حسنًا، سأخلعها.

- كلا، لن يكون هذا.

- إذًا ماذا سوف يكون ؟

- سأترك لك سيارتي.

- وأنت ومرمر؟

- لا تشغلي بالك.

- كلا لن يكون هذا، إنك تنسي أني لست بعالمة بالسيارات وكيفية تحريكها، بل هي زوجتك الأولى الملمة بكل تلك الأمور... يخفض نظره سريعًا وتكاد نظرة من الألم تمزق قلبه قبل وجهه .

- حسنًا، يا زهرتي ولكن عديني أن تحافظي على قلبي أنتِ ، وروحي لديك.

- أعدكَ.

يذهب إلى الغرفة ليأتي بطاقم مرمر لنقوم بإبدال ملابسه معًا لأجد في يديه زي البحارة بخطوطه الزرقاء وتلك القبعة المميزة له وغيرها من تفاصيل تميزه.

- ها ما رأيك أأعجبك ذوقي؟

- وهل من هو مثلك يَسأل؟! إننا نغمض أعيننا ونترك لك الاختيار؛ فثقتي بك تفوق كل حد.

- أخاف كل الخوف.

- مِمَّ؟

- من ثقتك.

- أثقتي تخيفك؟ إذًا هو خطئي، حسنًا، لك اعتذاري، لن أثق، أسعدت الآن؟

- كلا، فعيناك تقولان العكس.

- أتعبتني.. ماذا يرضيكَ؟

- المشكلة ليست رضائي؛ مشكلتي أن أكون أقل من ثقتك، ألا أوفر لك ما تستحقين وتنتظرين.

- اطمئن، لا أنتظر شيئًا أنا؛ فبك اكتملت حياتي ووجدت كل ما كنت أنتظره وأحلم به، ولقد وفرت لي كل ما أتمنى وأكثر، الأمان، الحنان، السعادة، الدفء.

- سأظل خائفًا أنا.

- وأنا سأظل أراك طفلي الذي لا يكبر، ها هو كنزنا جاهز هيا فلتحلِّقا معًا.

- ما هذا؟ انتظري أيتها السارقة.

- سارقة! وماذا سرقت أيها الضابط المحقق الأريب؟

- الاهتمام.. سيادتك لم تعط شبلنا وأميرنا الاهتمام المستحق له.

- أهو ذلك! حسنًا، سارقة أنا وأنت العادل المنصف المعطاء، أعطه ما تشاء.

- أجل، أترى والدتك صغيري؟ لا تهتم بأناقتك، ولكن أنا لا.. سأريك الآن لمسات الأناقة وأسرارها، اقترب.

فأرى صغيري يقترب في ثقة وترقب لينظر إليه والده بإعجاب شديد ويبدأ بثني تلك القطعة التي تحيط بعنقه وربطها على أفضل وأحسن ما يكون، يخلع قبعته ليعيد ترتيب خصلات شعره الليلي بفرشاته ومن ثم يعيد القبعة بزواية مائلة في دقة ليلتقط إحدى الزجاجات التي أتى بها لينثر ذلك العطر الذي أعشقه ويرافقني عند غيابه ليلًا بجوار تختي وفوق وسادتي على صغيرنا وعليه لينتهي موكب الاهتمام والأناقة الرجولي، أزجرهما ضاحكة قائلة:

- الوقت يا رجل الأعمال الخطير والمهم جدًّا.

ليحمل صغيرنا ويهم بفتح الباب ليلتفت مرة أخرى قائلًا:

- ما رأيك أن أقلك معنا؟

- كلا، الحفل مساءً، وأنا سأحتفل بالعروس هنا مع أقربائها وأصدقائنا حتى يحين موعد الحفل بتلك القاعة وسأذهب معهم بسياراتهم فهم قد استأجروا أكثر من سيارة، اطمئن.

ليحرك كفه بمعنى وهو كذلك، كما تريدين، ثم يفتح الباب وعيناه معلقتان بعيني، يكاد يقول، بل يريد أن يترك الزمان والمكان والكون ليسكنهما ، أسمع قلبه كما أسمعه.

ابنة البحر، أريد أن أغرق في بحرك العاجي الرحيم، والقريب البعيد، أريد أن أسكنه وأسمعه وأناغيه ليلكِ الطويل، دعكِ من اليوم والأمس والمستقبل القريب الآن هو الفرح ،العمر، والحلم المستحيل.

لأجدني الموج والبيت والليل الطويل، نغرق في عناق يفوق كل شوق وحديث دفء.. بلاغة هوى يُحَس.. يُرَى.. يذيب حتى وإن عدم الحديث، لأفيق على خنجر ألمي فأدفعهما بلين ورفق حاملة درع بسمتي لأنهي تلك اللحظات ذات النعيم الدُّري ونكهة السلسبيل ليبدأ رحلته بنزول درجات السلم رويدًا رويدًا وعند الدرجة الثالثة أركض إليهما لأعانقهما بكل ذرة من كياني وألثم كليهما لثمًا يكاد يكون يد زارع تريد أن تقتلع نبتة بكاملها.. بأوراقها وجذورها ليزرعها فيه، في قلبه، وكيانه لينظر كل منا للآخر نظرة لم ولن ننساها، تنتهي بركضي سريعًا إلى غرفتي وعودتي إليهما بتلك العلبة الصغيرة التي كدت أنسى أمرها، لأقوم

بإلباس كل منهما تلك السلسلة التي تحمل سورة المعوذتين ليرفعها إلى فمه ويلثمها ليقلده صغيرنا ومن ثم يضمني إليه في سرعة خاطفة ليغمرني بقبلة لم تستغرق سوى بضع ثوانٍ ولكن حملت الكثير، لأطير عائدة مغلقة الباب ومُديرة ظهري لكي لا أعود وأضعف ثانية لتأتي جارتي داعية إياي للجلوس معها فأدعوها أنا للشاي وأضعه على النار فتستجيب لي نظرًا للفضول الذي بزغت شمسه في عينيها وعقلها بعد رؤيتي بتلك الطلة المتألقة التي لم تجرؤ أن تكتم إعجابها الشديد بها، فنطق لسانها:

- يا لجمالك! إنك اليوم أنت العروس ولا أحد سواك، ما هذا الجمال الذي تفجر على حين غفلة؟

- ألم أكن جميلة قبلًا؟

لترد متلعثمة والاحمرار قد كسا خديها بلونها الوردي ويديها تقاتل بعضها بعضًا وصولًا إلى رفع إحداها خلف رأسها قائلة:

- بلى، ولكن اليوم فاق كل يوم.

فأضحك قائلة:

- حسنًا حسنًا، لا داعي للخجل، أعلم ماذا تقصدين، المهم انتظري، أريد أن أريك شيئًا.

فأذهب إلى غرفتي لآتي بتلك الهدايا التي كنت قد أحضرتها من أجل الحفل لأخرج على صوت الباب يُفتح وهي تحادث بعض النسوة لتتركني قائلة:

- عذرًا زهرة اليوم وتلك النسوة لن يتركن لي ساعة بل حتى دقائق للراحة، نكمل حديثنا في الحفل، إلى اللقاء قريبًا.

وترسل قبلة في الهواء مع شد إحدى النسوة لها في قوة لأذهب لأنام حتى دون أن أبدل ردائي، فقط أخلع الحذاء وأذوب في تختي، غاز يتسرب وشاي لم يجهز، فالقدر استبدله بمشروب آخر يترافق مع مشهد النهاية، صرخات تعلو ونسوة يركضن، وجارة تلطم خديها، وأخرى تحمل ركب الرحيل في نظرة وكلمة واحدة، ورجل محطم الأركان كبيت خرب جاث على ركبيته بجوار تخت يحوي أميرة نائمة وطفلًا يقف في

مكانه كتمثال قُد من رخام، فقط عيناه تنتقلان بين الأميرة وذلك المحطم ليسقط بجانبه هاويًا كطائر حطّ من علٍ بعد أقل من دقيقتين، فقد كلّت قدماه الصغيرتان وضعفتا، نعم ضعفتا، ولمَ لا؟! لقد علم قلبه كل شيء كل شئ.

أحيانا، بل غالبا ما نزرع من شوك تحصده أنامل الورد الغافية بفؤادنا و ليس كل شوك نزرعه نحصده نحن.

القطعة الثانية

- زادي، زادي، لماذا لا تجيب أمك صغيري؟ زادي، أم ترتعش من منبت رأسها لأخمص قدميها؛ فصغيرها .. وحيدها الذي أتى بعد عمر من حرمان وآلام وليالٍ من قحط وجفاف ويأس كساه اللون الأزرق وامتلأ جسده الصغير بموج من برودة ساحقة وقاتلة له ولها، تظل تعانقه عل ينتقل دفء حبها إليه ويعيده إليها، لتنتقل برودته هو إلى قلبها فتصرخ صرخات تمزق القلوب قبل الجدران وتظل تنادي: حسين، حسين، حسين، لقد ضاع كل شيء، كل شيء ضاااع!

كم من حقيقة ناصعة طمرتها مرايا آرائنا العاكسة

والمحطمة لها ولنا .

القطعة الثالثة

شارع يكسوه الظلام بجوار إحدى ڤيلات الحي الراقي في أواخر شهر ديسمبر وأحد لياليه شديدة البرودة، بعد منتصف الليل، يقف ذلك الفتى بعينيه الفسفوريتين شديدتي التميز للونهما ونظرتهما وشكلهما الساحر والمختلف، وبجواره إحدى فاتنات الحي الراقي، بل لا نبالغ إن قلنا فاتنته الأروع، يتهامسان معًا في شغف وغضب وتوتر وكثير من المشاعر المتناقضة والتي يجمعها خيط واحد، ماذا يفعلان بخصوص تلك الغيوم التي أصابت سماء راحتهما وسعادتهما.

- فهد، أواثق أنت منهم؟ أنا لا أريد أي خطأ ولو صغير، أتفهمني وتعي ما أقول؟

- أجل، شقيقتي وغاليتي لا تخشي شيئًا؛ فأنا معك في كل ما تريدين وتطمحين وتفكرين، فقط أشيري أجيبك أنا وألبي.

- آه يا فهد، أنا أعلم مقدار حبك لي وأضعاف أضعافه لديّ ولكن أخشى مني ومنك، ليس لقلة حبنا؛ بل لتلك الكراهية التي تملأ نفوس وقلوب من حولنا، سامحني أخي إن ظلمتك أو جرحتك بقول وأعلم أنه دون قصدي وإرادتي.

- أعلم حبيبتي، أعلم، دعكِ من كل هذا الآن ولنبدأ في ترتيب الأهم ومناقشته، فلقد حان وقرب موعد خطتنا الحاسمة والقالبة لكل الحسابات والموازين والمائدة برمتها وبما عليها.

- حسنًا، لا بأس، أولًا ،غدًا سيسافر ذلك الثعبان الماكر لمدة شهر في رحلة عمل ولقد تأكدت من الحجز وغير ذلك من أمور بنفسي وهو اليوم ساهر بمكتبه، سيأتي صباحًا لأخذ حقائبه فقط وتوديعنا، وقد أجهدت الخدم، وبالغت في إهانتهم للدرجة التي ستجعل نصفهم يطالبون بأجازة في وجوده، والبقية الباقية سيطلبون إن آجلًا أو عاجلًا، وبذلك يبقى أقل القليل، أو بالأحرى ذلك الداهية رشدي، وتلك الحيزبون راوية هما من سيبقيان مهما فعلت ولكني قد أعددت عدتي لأجعلهما يرحلان ويلحقان بالآخرين.

- كيف؟ كيف ذلك؟

- لا تسأل، ولكن لتطمئن، أنا أيضًا لديَّ طرقي وصِلاتي وبذلك يبقى الجزء المنوط بك وبعصابتك الصغيرة.

- وهو كذلك، لقد تم إعلام الجميع وإعداد كل شيء، وبخصوص لب العملية والهدف الشرعي والأصلي لها لقد جندت له الأعتى والأخطر بينهم وستكون الخطة كالتالي، اقتحام، سرقة لما خف حمله وغلا ثمنه، تكسير لغرفتك وغرفة الأطفال، وحريق بجوار الباب الخلفي للحديقة، دورك هو حمل الصغير وتركه بجوار باب المطبخ المواجه لباب الحديقة الخلفي ومن ثم العودة إلى الداخل ثانية لافتعال المشادة المتفق عليها لترك بعض الخدوش عليك والرضات البسيطة، وصراخك منادية عليه، وركضك إلى ابنتك وعناقها بشدة، وصولًا إلى جرّك من خصلات شعرك إلى مكان الحريق لتصرخي تلك الصرخة المدوية، واضعة كفك في النار لمدة ثلاثين ثانية لا أكثر وأنت مرتدية هذا، وبعد ذلك سيقومون بتقسيم الغنيمة المالية إلى نصفين، أحدهما مع البقية و الآخر معه.

- مع ذلك القاتل! أتثقون به؟

- بالطبع لا، ولذلك سيلقي بالنصف الخاص به في ذلك الصندوق الذي يبعد عن ڤيلتك بمقدار ثلاثة شوارع فقط، لألتقطه أنا بعد مغادرته، وإن لم يكن، تبعته وأنهيت عمره بيدي.

- وهل يعلم؟

- بالطبع لا، بل أعلمك أنتِ وهم يعلمون أنه سيلقيه ولكن لا يدرون بالمكان، بل أبلغتهم أنه سيخبرهم بمجرد رميه وليس العكس وأنهم يجب عليهم عدم إخباره بمكان النصف الخاص بهم إلا بعد إبلاغي أنا لهم بإمكانية ذلك والغنيمة لهم بأكملها ما عدا مجوهراتك، فهم سيأخذون المال والحلي الخاص بزوجك من خواتم وساعات، ها، أراضية أنتِ؟

- كل الرضا، فما يهمني هو التخلص منه، من تلك الشوكة التي قصمت ظهري وحطمت عالمي

- سيكون ولكن تذكري، ألبسيه هذا الرداء.

- رداء! أي رداء؟

- انتظري.

ليذهب ويأتي به في حقيبة زرقاء، رداء صوفي أبيض مكون من قطعتين.

- لمَ هذا الرداء بالذات؟

- لأن به مسرّع للحريق، بمعنى آخر بمجرد ارتدائه وإلقائه في النار به لن يقدر أحد على إنقاذه، سيسير أتونًا مشتعلًا، قنبلة تسير على قدمين، ولأن هذا اللون سيجعله واضحًا أكثر في الظلام، أفهمتِ؟

- أجل ، فهمت.

- لكن احذري، لا تُلبسيه إياه إلا بعد منتصف الليل بعشر دقائق فقط، فلا نريد اشتعاله إلا بعد وصولهم وقيامهم بالسرقة، آه واحذري من تدخين سجائرك هذا اليوم، لا داعي لها حرصًا عليكِ وعلى هذا الترتيب.

- وهو كذلك، اطمئن.

- حسنًا، الآن قد اطمأنَّ قلبي بعض الشيء، ولكن سيطمئن أكثر ويستريح بالي عند انتهاء هذا الكابوس، المهم ما أخبار أميرتك؟

- كما هي لا تنطق حتى إن تواصلها قل، فذلك الوحش زادت قسوته معها بعد موت تلك الساحرة وشكه بي بعد تهديدي السابق على موتها بوقت قليل، مجنون، أكل كل كلمة نقولها عند غضبنا نقصدها ونفعلها؟ أيظن من ينتوي فعل الشر يدق الجرس في كل أنحاء المدينة قبل إتيانه بحق غبي وقاسٍ، الآن سأريه كيف هو الفعل الحق، أتدري، إن ذلك الحيوان كلما اقتربت صغيرتي من أميره الأوحد تلاعبه وتشاركه أشياءها ضربها ضربًا مبرحًا، أرأيت قبل ذلك أبًا يكره رؤية أولاده متفاهمين ومحبين بعضهم لبعض؟ لقد زرع الكره في قلبي له وهو لا يدري أنني كنت قد بدأت أحبه وأنسى كل شيء عن كونه من امرأة أخرى، لأرى فيه ابني وشقيق ابنتي الأغلى، لينزع كل ذلك بكفي قسوته وغضبه الأعمى ويشعل فتيل قنبلة من الكراهية والحقد لا يُدري مداها ولن يُدري يومًا.

- اهدئي، اهدئي حبيبتي ودعي عنك كل ذلك، فأنا هنا من أجلك وأميرتنا ستكون يومًا فاتنة مثلك يا فاتنة الكون، هههههههههه.

- فهدي قادر أنت على تبديل مزاج شقيقتك.

وتمتد كفها لجذب خده وقرصه برفق كوجنتي طفل شقي ليغمز لها رافعًا ياقة معطفه في ثقة وجاذبًا لها ومن ثم معانقتها في حب أخوي هامسًا:

- ولكني أفوقك سحرًا..

لتلكزه في صدره بضربة رقيقة قائلة:

- مغرور .

- هو ذلك ولكن مغرور وسيم جدًّا ، أتنكرين؟

لينطقها رافعًا أصبعًا بجوار ثغره وأنفه لتجيبه حسنًا، حسنًا، لا أنكر، رافعة وخافضة كفيها إعلانًا بالموافقة والقبول الذي لا سبيل للفرار من إعلانهما، ثم تجلس في النهاية على إحدي السيارات المركونة ليمد يده جاذبًا إياها ومعانقًا لها ولاثمًا جبينها ومن ثم توديعه لها بقوله:

- إلى اللقاء أميرتي، يكفي هذا اليوم، الفجر اقترب موعد وصوله، وأيضًا أرى البرد قد بدأ في مشاغبتك بأنامله الباردة والقاسية، ولذا هيا إلى الداخل فورًا.

- ولكن...

- ولا كلمة، هيا، هيا وإلا حرمتك عناقاتي الرائعة وطلتي البهية.

- بهية! حسنًا، بعد تلك الكلمة أنا التي أريدك أن تغادر، "قال بهية قال" مشاكس صغير وطفل نزق بحاجة لتعلُم آداب الطبقة الراقية ومفرداتها، اذهب هيا، ولا تنسَ أن ترسل سلامي إلى بهية خاصتك، ليضحك كلاهما ثم يتعانقا، ليذهب كل منهما في طريقه مرسلًا للآخر قبلة في الهواء، يمسك بها بكفه ليقبله ثانية ويضعها بجوار فؤاده.

بريد السماء لا تنتهي رسائله،

ولكن ليس كل فؤاد يجيد قراءتها.

القطعة الرابعة

يا إلهي! ماذا فعلت أنا ليكون ما كان؟ أهو عقاب أم اختبار أم ماذا؟ قد كنت أعصاك ولم يصيبني شيء، وعندما أنوي أن أتوب إليك يصيبني كل ذلك، أرجوك أنر عتمتي، لقد أظلمت كل حواسي وتاه الدرب وأختفى من أمامي كل ضوء، إن كنت ترى أن توبتي ليست صادقة وذلك لما أنا مقبل عليه؛ ففؤادي هذا الذي تراه وتعلمه أكثر مني يشهد أن ما أنا مقبل عليه هدفه خير، أتريد مني عدم القيام به؟ حسنًا، وذلك الفتى ما مصيره إن آتى غيري دون قلب؟ لا، لا أدري، إن فؤادي لا يطاوعني، أتريد مني تركه لمصيره كيفما كان؟ أم أن تجعلني درعًا له وقوسًا ونشابًا يرتد في قلب من يريد الاقتراب منه ونيله بسوء؟

الرسائل كثرت والعقل والحيلة وكثرة التفكير أعيتني، ها أنا رجل عمره ينتهي مصابًا بذلك اللعين، بل وفي آخر مراحله، وزوجتي الميتة الحية أو الحية الميتة تذوى أمام عيني ولا أقدر على فعل شيء، ها أنا

عاجز كطفل صغير في حاجة لتلك اليد التي تطعمه وتسقيه وتحميه، وذلك الصوت يخبره أنا بجانبك دائمًا، في كل شيء معك، خائف؛ كريم ترى ضرغامًا وتدري جيدًا مهما كان ركضها سريعًا فنهايتها حتمية، لن تختلف، فقط هي بضع لحظات ولكن النهاية واحدة وآتية لن تخطئها.

ها أنا بين يديك، أخرجني مما أنا فيه، ربي ماذا أفعل؟ لمن أحكي؟ ومن يسمع ؟ داخلي المجرم القادر على قلب موازين اللعبة يصدح ويعربد بأرجاء عقلي، وذلك الأب المكلوم يبكي وينادي صغيره ويراه حوله، وفي المنتصف ذاك التائب الواقف يدق بابك، أتريدني أم تبعدني وتلفظني؟ أجبني، أجبني، أجبني، لقد شارفت على الجنون وأسير نحو الهاوية بخطى ثابتة وعنها لا أحيد.

تنهمر دموعه مع تلك الكلمات على سجادة صلاته الخضراء التي أصبحت واحة راحته ورفيقة أيامه الحالية والدائمة الآن، قد ينسى الشراب، الطعام، الدواء، إلا هي؛ فهي بوابة اللقاء الأعظم، ذلك اللقاء الباعث للأمان والتخفف من الآلام معه، ويظل نزيف الدمع والكلمات يسيل على درب سجادته، ويظل سائلًا ومتسائلًا ومنتظرًا لإجابة، إشارة

تريحه وتخرجه من عتمته ليتعانق المجرم والتائب والأب، عقل وروح وقلب يرسمون له خطوط النهاية ليبدأ خطواته المترددة نحو قرار لا يدري أهو خطأ أم صواب ؟ يقترب أم يبتعد؟ وماذا سيجلب له؟ لكنه استسلم، فما عاد يبالي بشيء، أي .. أي شيء، بعد ما كان من أفعال القدر معه وألاعيبه الساحقة، المضحكة والمبكية في آن واحد معًا.

V V V

أنتم القضاه والمقصلة والكل جلادي

وأنا تهمتي مسجله بخانة ميلادي

(أ.. ن..ث..ى)

القطعة الخامسة

ها أنا الآن وحيدة دون أسرتي الصغيرة وعالمي الوحيد، تلك الفتاة الهاربة التاركة لكل من بقي لها من حطام هذه الدنيا، مجنونة، قد أُنعت بتلك الصفة لكن لا يهمني ما يقول الآخرون عني، ولا يهمني ذلك المجتمع، أليس هذا المجتمع الذي نبذني لقرابتي بذلك الوغد؟ وهو ذاته الذي سيوصمني بالعار وانعدام الشرف لعيشي وحدي دونه رغم ما هو عليه، مدانة أنا في كلتا الحالتين، إذًا فلتذهب آراؤهم للجحيم، ولأفعل ما يرضي خالقي؛ فهو العادل الباقي الذي لا يتبدل مثلهم.

سأبحث عن عمل بشهادتي تلك وسأكمل تعليمي أيضًا؛ فذاك لا يتعارض مع ذلك، لقد أسست منزلي الصغير بما تركت لي والدتي من حلي، والباقي أودعته في حساب باسمي، نعم، فلقد استأجرت غرفة صغيرة بأحد المنازل المهترئة بتلك الأحياء الشعبية القديمة، أسستها بما هو ضروري، تخت ودولاب درفة واحدة، وبداخله مرآة، وفي الركن

ذلك البوتاجاز المسطح ومقعدان وثلاجة صغيرة ومذياع ومنبه صغير، رداء للنوم وثوبان للعمل، وحذاء للمشاوير اليومية وحذاء للمناسبات وحقيبة واحدة، فالتنقل بين أكثر من واحدة يضيع بعض الأشياء وينسينا بعضها الآخر.

جالسة بمنتصف تختي أفكر بخطواتي القادمة، لقد صرت أعمل الآن بإحدى تلك المكتبات الخاصة بملازم طلاب الكليات وعملي يوفر لي مبلغًا ليس بالكثير، ولكن مع فوائد الحساب البنكي يكفيني ويغنيني عن ذل السؤال، وأيضًا يؤمن لي استمراري في إكمال تعليمي، بل وييسر ذلك، بقي الآن أن أوقف ذلك الحنين العاصف إليهم، ولكن كيف؟ كيف أنسى ذلك الصغير وحبوه على قدميه وكفيه وصولًا إلى عمته وضحكته وشريكته في لهوه المرح؟ كيف أنسى تلك الشقيقة التي لم تنجبها أمي وبسمتها الوادعة؟ مزاحنا وحديثنا وعناقاتنا الدافئة مسلسل المساء مع أريج الشاي بالنعناع الطازج والمنعش وبجواره تلك المعجنات المميزة المذاق، تسوقنا صباحًا وحديثنا الذي يطال أغلب سكان شارعنا والشوارع التي تليه، وندمنا على ذلك الفعل بعدها، وتوقفنا، ومن ثم

عودتنا بعد وقت طويل، ومن ثم نتوقف هكذا مرة تلو المرة، خوفنا عند اختفائه الطويل وفرحتنا عند رؤيته وعشائنا سويًّا، حتى وإن كان العشاء جبنًا قديمًا وبعض البيض والقليل من الخضر والعسل الأسمر، اشتقت إليهم كثيرًا، لا يمكن إنكار ذلك، ولكن كيف السبيل لاقتلاع ذلك الحنين أو ملاقاتهم ولكن دون دخول إياهم عالمي الجديد واقتحامه؟

اليوم يجافيني النوم بصورة غير طبيعية ويدق ناقوس قلبي وعقلي مرددًا أسماءهم وعارضًا جميل ذكرياتنا، أهو محض نزق فتاة وحيدة ؟ أم قلب ما زال مربوطة أواصره بأغلى غالٍ لديه؟ أتراهم في خطر؟ أهُم في حاجة إلى تواجدي ووجودي أم ماذا؟ قلبي يؤلمني وطاحونة عقلي لا تكف عن ترديد ذكراهم، نداء تطلقه الرياح في أرجاء جسدي وروحي وقلبي فتعصف بشجرة ذكرياتي لتتساقط أوراق شجر على خيالي ذكرى .. ذكرى، تغمرني وتغطيني وتغرقني، فأجد نفسي قد حسمت قراري.

ڤيلا ضخمة يحدها سور ليس بالقصير وليس بالطويل، حرس أمني، ذلك المسمي "بودي جارد" ضخام الجسد، حادو النظرات، يرتدون سترات سوداء ،ويضعون تلك السماعات بآذانهم، ما إن هممت

بالاقتراب بسيارتي حتى هبوا من موضع وقوفهم إليَّ لأخرج كارتي في هدوء وثقة قائلًا سمر هانم في انتظاري منذ ما يقارب الثلث ساعة، ليهرعوا إلى بوابة الڤيلا في توتر شديد وسرعة لتنفتح لي ولسيارتي لأدلف في تأنٍ ناثرًا ضحكتي الساخرة على وجوههم المرتعدة والخجلى لأصفها أمام الفيلا تمامًا.

أترجل منها حاملًا حقيبتي ونظارتي الشمسية تغطي نصف وجهي وعطري "الدارك بلاك" يسبقني ويعلن مجيئي، لأجدها أمامي مشرعة الباب قبل أن تمس أناملي الجرس بسنتيمترات قليلة، مرتدية "تايراً" مكونًا من ثلاث قطع، اثنين باللون الأسود والقطعة الأخيرة، أجل، كموني، ما هذا الذي يحدث؟! إننا لو كان بيننا اتفاق لن يكون التطابق مثل هذا الذي أراه! ليسدل ثغرها تلك البسمة الجانبية شديدة الجاذبية في كل لقاء أرى خيطًا لا مرئيًّا يجذبني إليها، ليس حبًّا؛ بل هو شيء آخر لا أدري كنهه إلى الآن لكني أقبله وأفضله، لا أرفضه.

أعود من حواري العقلي إليها مادًّا كفي لها مادحًا رداءها ليكسو وجهها تلك النظرة الواثقة مع ثمار الخجل الناطقة في غصني وجنتيها

لترد مدحي بتعليقها الذكي كما عهدتها حاضرة الذهن ... سريعة البديهة:

- أتمدح ثوبي أم رداءك أيها الواثق؟

- بل المدح لذلك اللون الذي جمعنا سويًّا اليوم، لقد صرت أحبه وبشدة الآن.

- أهو اللون إذًا لا شيء سواه؟

- امم، إحقاقًا للحق، هو اللون أجل، ولكن لون عينيك... لأرمقها بنظرة زلزلت كيانها الواثق بأكمله وأطاحت بخطوط دفاعها لأسقط آخر الخطوط بعد محاولتها المتذاكية الأخيرة بسؤالها:

- أتعرف لونها؟

لأسحقها بقولي:

- وهل تسأل الزهرة عن عطرها لأسال أنا عن لون عينيك؟! إن لونها يحس، يشعر، يغرق ولا يذكر؛ فهو أعلى وأعمق من بضع حروف صغيرة على طرف لسان، بل إنه بحاجة لعلماء ورسامين وشعراء

لدراسته ورصده ونشره... لينتشلها من بحر تلعثمها اللذيذ وصيرورتها أنثى، بل طفلة في غاية الجمال والروعة تنادي ذلك الأب النائم بداخلك، صوت خادمتها قائلًا:

- البيك ثار مرة ثانية ولا أدري ماذا أفعل معه؟.. لتفيق وتدير رأسها لها قائلة:

- دعيه لي الآن واذهبي أنتِ لتحضير الشاي وما يلزم لضيفنا العزيز.. فتستجيب لها في سرعة وخفة وتختفي من أمامنا في ثوانٍ لتنفيذ أمر سيدتها لينتقل حديثنا من أمام الباب إلى حجرة واسعة مليئة بأثاث غالٍ وراقٍ ينم عن ذوق رائع، كل قطعة وضعت بجوار شقيقتها بعناية واهتمام بالغ، لوحة هي وليست حجرة، لأجدني أجلس على أحد المقاعد بسلاسة وأريحية فأترك حقيبتي أمامي على تلك المنضدة الصغيرة لتستعيد دفة الحوار ببسمة رقيقة مستطردة:

- أترى إلام وصلت الحياة بيننا تحت سقف تلك الڤيلا أنا وأبي؟

ترفع كفها وتضعه على جبينها في حزن ويأس وحيرة لأجذب كفها وأرفع وجهها بين يدي وأحدثها وأنا أنظر في عينيها خالعًا نظارتي الشمسية الريبان واضعًا إياها بجوار حقيبتي:

- كفى أنا هنا الآن، وكل شيء سيكون بخير، أعدك بذلك، ألا تثقين في وعد حازم الغمراوي؟ من تهتز جدران المحاكم لمرافعاته الرائعة، وترتعد فرائص الموكلين أمام حنكته ودهائه ونظرته الثاقبة، لتحبو ضحكتها ومن ثم تركض سريعًا مع جملة:

- كفى كفى أيها المغرور، إنني أظن أوناسيس ليس بمثل تلك الثقة والغرور، أو حتى هتلر أو نابليون.

- ومن هم بجانبي وماذا يملكون مما أملك، هذا ليس سوى مليونير ،والآخران مستعمِران وقاتلان، أما أنا فليس لي مثيل، عادل، رائع، وسيم، ذكي، غني، آتي بحق المظلومين، ولست بظالم مثل هؤلاء الذين ذكرتِ.

- حسنًا حسنًا، يا وحيد العصر وفلتته الخطيرة.

- أتتهكمين عليَّ وتسخرين مني؟ وحيد القرن وخطير العصر، أهكذا ترينني؟.. لتنفجر في نوبة من الضحك بعد قولي وحيد القرن لتقول من بين دموع ضحكها:

- بعيدًا عن هذا المزاح، حقيقة أثق بك كل الثقة يا حازم، أثق بك بصورة لا تخطر لك ببال.. ليعلو وجهي ذلك التعبير عسير التأويل والفهم لتسرع بالاعتذار، آسفة إن ذكرت اسمك دون ألقاب.

- ما هذا؟ لا داعي للاعتذار، سمر، إنني أيضًا أذكر اسمك دون ألقاب في بعض الأحيان، أم نسيتِ لقاءنا الأول؟

- لا لم أنسَ؛ ولكن..

- لا، لا تلتفتي لوجهي ولا تقعي في شرك تعبيراته الغامضة والخادعة.

- حسنًا، والآن أخبرني عن خطتك لهذا اليوم وتلك الجلسة.

- تلك بالأحرى جولة استكشافية لشخصية والدك ودروب عقله وأزقته الخلفية، ولذا فلتقدميني إليه وتسرعي بالمغادرة لأي حجة كانت، سأترك أمر تلك الحجة لك.

- حسنًا، ألن تسألني عن أي شيء بخصوص والدي؟

- كلا، أريد أن أراه بعيني أولًا، ومن ثم أسمع منك بعد ذلك.

- آها لك ذلك إذًا أيها الداهية.

- أحسنتِ يا ملاكي الصغير والجميل جدًّا.

- لا يطربني هذا المديح.

- ومن قال إني أريد ذلك؟

- آه منك، دائمًا قادر على هزيمتي وإسكاتي.

- وهل من هي مثلك تهزم؟

- امم، بدأت تطربني.

- وهل تظنين أن تلك بداية؟.. لترفع يديها الاثنتين بجوار منبت شعرها قائلة:

- كفى، لتخفضها في غيظ مصطنع ومثير لتكمل:

- أتعبتني بحق جدًّا، تدخل الخادمة وأمامها مائدة الشاي تلك التي ترى في أفلام الأبيض والأسود وفوقها الشاي ولوازمه من سكر ولبن

وغيرها من أمور بجوار المعجنات والجاتوه والبسكوت، بل والعلبة الممتلئة والمعانقة للشيكولا بنكهاتها المحببة والمميزة، لترفعها بيدها الأخرى ومن ثم تفتحها بعد ترك مائدة الشاي بجوار يد مخدومتها لتقول:

- تفضل سيدي.. لأردها بيدي شاكرًا إياها فتتركها بمهارة وخفة أمامي وتستأذن منصرفة بعد تأكدها من عدم وجود مهام تقوم بها في الوقت الحالي، ولكنها تعود سريعًا لتهمس في أذن سمر ببضع كلمات قليلة لتقف على الفور وتستأذن هي الأخرى لتتركاني مع تلك المائدة والعلبة وأطباق أفكاري الشهية فأفيق على صوت رخيم وأثر آتٍ من اللاشيء، أسمعه بقلبي ولا أرى صاحبه:

- من أنت ؟ ولمَ أتيت إلى هذا البيت الملعون وسكانه الأفاقين والكاذبين والقتلة؟

- هل تظن أني من أتى؟

- ماذا إذًا؟

- هو من أتى إليَّ.

- امم، إنك مختلف وأظنك ذكيًّا.

- تظن!

- أجل، كان من الممكن أن أكون واثقًا؛ ولكن لأنك هنا فذكاؤك موضع شك لديَّ.

- حسنًا، سأدع ذكائي جانبًا وسأسألك، إن سمحت لي بالطبع.

- أسمح دون شك أو حتى شرط.

- من أنت؟

- وهل أجبتني أنت حتى أجيبك أنا؟

- حسنًا، سأجيبك ولكن أجبني أولًا.

- وهل أنت من سألت أولًا؟ كن عادلًا مثلي يا من تأخذ العدل مهنة!

أفغر فاهي وأقف مشدوها فيرد عليَّ:

- لست وحدك من تملك الذكاء يا صغيري إذا سمحت بذلك؟

- أسمح؛ فقولك هذا أعلمني من أنت.

- أهو ذلك؟ فلتفصح عن هويتي.

- كلا، سأبقي إياها لنفسي حتى يحين موعد قولها.

- نمر أنت.

- وأنت ضرغام.

- إذًا أين هي تلك الغزالة التي تجمعنا.

- ستأتي قريبًا، فأريحنا الساحر سيتناهى ويتهادى قريبًا إليها ويأتي بها.

تدخل سمر بهدوء ورباطة جأش لتمد يدها في اللاشيء وتأتي به، عجوز ستيني، مظهره لا يوحي بذلك العمر، بل هو قول ابنته، لكن ما أراه أمامي رجلاً في العقد الرابع أو منتصفه على أقصى تقدير، رائع الملبس، نضر البشرة، لا يشي بطول العمر سوى شعيرات بيضاء قليلة تتناثر في جاذبية على فحم شعره للدرجة التي تظن معها أنها قطع من الثلج الصغيرة قد سقطت دون قصد عليه وتحتاج فقط لتربيتة خفيفة من كفه لتتساقط جميعها.

جلس ثلاثتنا بعد قيام سمر بتعريف كل منا للآخر تعريفًا سطحيًّا لم يصل للأعماق مثلما فعل حديثنا السابق على دخولها إلينا، وليكن، فيجب علينا القيام بتلك المشاهد الهزلية لنصل للكواليس والأسرار التي جرى إغراقها ودفنها لننبش تربتها ونقوم بإخراجها، جرى مشهدنا كما يجب أن يكون المشهد، حديث فاتر لا يمت للأفكار، والثرثرة والحرب المشتعلة بساحات عقولنا، لتستأذن من كلينا بحجة مكالمة مهمة وأمر الخادمة بتغيير المشروب لكونه قد أصبح باردًا، تتركنا لجولتنا الثانية ليمسك بدفة الحديث، بدأ مناورة لا تأتي سوى من داهية، أتركه يأتي بضرباته ويوقع بي الهزائم النكراء، يا أيها الشيخ الجليل الذكي، تظن أنك الممسك بالدفة، فلتظن، ولكني أنا من أراد ذلك، سأجعلك ترى أنك السائق، ولكنك لست سوى مركبة تسير وفق هوايَ وإرادتي، لينتهي حديثنا المفخخ مع أريج تلك الأميرة الفرعونية بطلتها البرونزية وعينيها الزمرديتين وموسيقى كعب حذائها الواثقة والممزقة للأفئدة الضعيفة، لينطق كلانا في لحظة واحدة، إن لحظة من غيابك تعادل دورات

وسنوات ضوئية، لتنظر لكلينا مندهشة وهي تكمل لحنها بدقات كعبها لتستوي بمقعدها الذي كان بشوق إليها يعادل شوقنا، لتنطق وتقول:

- أتركككما بضع دقائق وآتي لأجد كلًّا منكما نسخة عن الآخر!

ليضحك كلانا في اللحظة ذاتها ونرد قائلين: محض صدفة، لتنظر لكل منا على حدة وهي تحرك أصبعها وتؤشر على كل منا وتضيق عينيها وهي تقول:

- وماذا عن هذا؟ فلتنكرا كما شئتما، ولكن عاجلًا أو آجلًا سيكون الاعتراف ثالثكما.. ينفجر ثلاثتنا ضاحكين ،فيترافق ضحكنا مع دخول الخادمة إلينا مرة أخرى بعد إعداد الشاي الساخن ثانية، بل وبجانبه القهوة والتمر هذه المرة ، وبالطبع المعجنات وغيرها من أمور جرى معرفتي بها ورؤيتي لها لتخرج بالمائدة السابقة الخالية من معشوقتي المفضلة، وتترك المائدة الثانية الحاوية لمشروب السحر والسعادة وأريجه السافر، ليهتف في جزل:

- ها قد أتت أخيرًا، صبي لي فنجاني، فترفع وجهها لتتألق بحيرات الزمرد وتخبرني دون صوت، ها قد بدأ، انتظر وسترى، لأطمئنها بمس كفي لكفها برقة تحاكي مس النسيم لخدها، مسًا عابرًا يظن من يراه أني آخذ منها الفنجان لأضعه في يد والدها لتتحول البحيرات الهائجة والمرتعشة إلى أشجار يراقصها الهواء، وبالفعل آخذ الفنجان لأضعه في يد والدها وأعود لصب فنجان لي فأجدها قد سبقتني وتقوم بوضعه ممتلئًا بين كفي، وعينيها تقبل كل ذرة من وجهي سعادة وامتنانًا لأناوشها ضاحكًا:

- كلا، لن يحسب ذلك الفنجان بالمرة.

- ولمَ؟

- لأنه ينقصه أهم شيء، بل كل شيء، وهو... ليرد الوالد ضاحكًا وغامزًا وضاربًا كفه بكفي:

- نعم أنت معك كل الحق، ورأيي هو رأيك لتنقل بصرها بيننا وتهم بالقيام وتركنا لتنفجر فينا معًا لنعيدها ضاحكين وكل منا يمسك بأحد

الأطباق الصغيرة الملأي بالتمر، أهي لمتعة النظر أم ماذا؟ لتنفجر ضاحكة ونحن معها ، قائلة :مشاكسان.

نحتسي قهوتنا برفقة التمر متناسين كل ما يدور حولنا وفينا، ذائبين في نشوة هذا المشروب المعدل والمشكل لكل شيء فينا ومن حولنا.

تنتهي جلستنا الودية بعدما يقارب الثلاث ساعات على أقل تقدير لأودع الشيخ الصبي، أو الشاب الجليل، وكل منا يكاد لا يريد مفارقة الآخر، كأننا معرفة عمر وليس بضع ساعات، لتودعني المليكة الفرعونية الطلة والزمردية النظرة بتراقص أغصان غابات السافانا وحراسها، وثغرها الرماني تترقرق حبات ثماره الشهية بحديث دون نطق، فقط عناق، فرط لفرط في رقصة تقول الكثير، لترد أناملي بدفء بليغ الحديث تكاد معه تذوب قطعة شيكولا في فم طفل صغير أو تسقط ثملة كمن تجرعت كؤوسًا من نبيذ لأردها إلى أرضها بترنيمي اسمها عاريًا من كل لقب أو تبجيل مكملًا جملتي بطلبي انتظارها محادثة هاتفية مني إن سمحت لي وسمح وقتها، فتوافق على الفور قائلة : أي وقت يناسبك هو مناسب لي، فأشكرها وأهم بالمغادرة فتوقفني بإشارة من

يدها على إثر مناداة خادمتها لها وهي تركض ممسكة بحقيبتي وهاتفي لأعود آخذًا إياهما منها لأنطق ضاحكًا:

- أنس مجالسة والدك أنساني اسمي.. لترد عاتبة:

- أهو والدي ؟! إذًا لتهاتفه وقتما شئت، لأجذبها قائلًا وعيناي تبارز عينيها بالنظرات الفصيحة والطليقة اللسان:

- بل وقتما شئت أنتِ.

- ماذا؟ ماذا تقصد؟

- أقصد مثلما فهمتِ.. فتضيق عينيها ويشتعل زمردها:

- ولكني لم أفهم ولذا أسأل.

- كلا بل فهمتِ وما فهمتِ لم يعجبك وتريدين مني التراجع وتغييره وهذا لن يحدث، وداعًا قطتي الفرعونية.. وأمضي في طريقي ورنة ضحكتي تزلزل كيانها قبل أرجاء المكان، لتترك لي بركانًا زمرديًّا متأججًا يحرقني بلهيب سهامه النارية الحامية.

ها أنا الآن في منزلي أسترجع ما كان من ذلك اللقاء العاصف لأجدني تائهًا بين كرات من مشاعر لا مجرد خيوط متشابكة، لقد أحببت هذا الوالد وأخذني دهاؤه وسرعة بديهته وحضور ذهنه ودعاباته ونوبات غضبه الخاطفة أو بالأحرى شرارتها، فهي لم تندلع كاملة أمامي، فمعه كنت كمن يرى روحه في مرآة بالفعل، هو يشبهني في الكثير، أو أنا أشبهه، ليس ثمة فرق، ولكني الآن غارق في موج إعجابي به وقد أقلعت سفن حياديتي اللازمة والواجبة الحضور، وعلى الجهة الأخرى سمر، لا أدري ما توصيف ما أشعره نحوها، أهو حب؟ إعجاب؟ أم شيء آخر؟ حب؟ لا أظن، بل هو شعور آخر ليس له مسمى لدي الآن، لكني أخاف عليها بشدة، ويسعدني ضحكها كأنني والدها أو هي مسئوليتي وليست مجرد عميلة، ولكن لندع المشاعر جانبًا، لنحصد النتائج أولًا، ربحت الوالد أو بالأحرى هو ربحني بصفه وهدمت جميع الجدران بيننا، وقضية الخلع سوف تكون أول فوز وفرحة لها، بقي تلك القضية الثانية، أو فلنقل لغز الألغاز، ولكن لا، لا

شيء يستعصي عليَّ، أنا حازم الغمراوي، سأجد مرادي وستنفذ حيلتي ويفوز دهائي؛ فخطتي تسير كما خططت لها.

العاشرة مساءً، إضاءة خافتة وأب وابنته جالسان إلى مائدة كبيرة يتناولان العشاء، لا شيء يعلو سوى صوت أدوات المائدة وقرع الأكواب والفناجين الخزفية، على الجانب الآخر العاملون في المطبخ، بل في المنزل ككل، يتهامسون على انتهاء نوبات الغضب البركانية، أو على وجه الدقة عدم حدوثها اليوم، فلا أحد يعلم ما سيأتي به الغد، وسر ذلك، أهو ضيف اليوم؟ ما أغرب آثاره على السيد! لقد صار مثل الطفل وقد عانق لعبته المفضلة، إن كان هو السبب فليته يأتي كل يوم، إنه ساحر بحق، لقد سمعنا ضحكة سيد المنزل لأول مرة منذ سنين، حتى سمر هانم صارت أكثر إشراقًا وابتسامًا، صارت أميرة تتهادى وزهرة تنشر أريج عطرها الأخاذ، كل من في المنزل كان يتحدث ويتهامس على الضيف الآسر والساحر الطلة والأثر.

يعلو صوت سيد المنزل فجأة ويحتل الحديث عنه وقت العشاء ليقطع الصمت وتصير الإضاءة الخافتة شمسًا مشرقة بذكره الذي جعل كل الوجوه قناديل تنير عتمة الليل، ليلقي كمال البنهاوي جملته التي أطارت عقل سمر وقلبها وأسكنتهم سابع سماء:

- أحسنت، لقد أحسنت اختيار محاميك، ليتك فعلتِ هذا عند اختيار زوجك، ولكن دعينا، فأنا لا أهوى الحديث عنه، المهم، أخبري محاميك برغبتي الشديدة في الانتهاء من قضية خلعك سريعًا وموافقتي على إعطائه ما يريد في سبيل تذليل كل عسير والنجاح في الفوز بتلك القضية، آه ولا تنسي ترتيب لقاء لنا بالنادي بعد غد صباحًا فأنا أريد محادثته في أمر هام، إن كان وقته يسمح، ولكني ليس لدي شك بموافقته

وعندما تهم بمقاطعته لتسأله عن مكمن ثقته وسببها، رد بجملة واحدة:

- من هم مثلنا اجتماعهما فرض، وعدم حدوثه ذنب لا يغتفر.

- لمن؟

- للقدر!

وقبل أن أكمل حديثي، رفع أبي كفه باشارة لإنهاء الحوار ومن ثم إلقائه منديل المائدة وقيامه رافعًا صوته : "القهوة، أحضروها لي في غرفتي الزرقاء" فيتركني ما بين شفرتي الحيرة والدهشة والسعادة الفائقة، لأجد نفسي في حجرتي ممسكة بهاتفي أحادثه كأنما طفلة تركض إلى كفي والدها، أو دمية شُدَّ خيطها لتؤدي فقرتها كما رسمت لها، وجملة واحدة تتردد داخلي: يا لك من رجل!

دقات تتوالى بسرعة قطار بخاري أو سرعة تفوق الضوء والصوت، ودرجة حرارة ترتفع، تكاد تصل للغليان لتنقلب كل تلك الأرقام رأسًا على عقب عند صدور خطوات الصوت الدافئ والمعانق والرخيم ناطقًا:

- ها قد أتيتِ، لن أقول تأخرتِ، كلا، بل سبقتِ موعدك الذي كتبته ثقتي.

ترد حانقة وفرحة في آن معًا: ألن تسال من أنا؟

- وهل من هي مثلك بحاجة لكارت تعريف عند المحادثة؟

- امم، كلا، ولكن...

- ولكن ماذا؟ أهو صدور صوتك؟ لست بحاجة إليه؛ فقد نطقت نبضاتك البخارية وبركان أرجائك أنني أراك أمامي، وإن شئتِ الحق هذا حديث ودي بين اثنين لا يفصل بينهما سوى مسافة قبضة يد.

- ....

- أتريدين اختباري؟

- نعم، هو ذلك.

- حسنًا، لكِ كل ما تريدين ،اسألي وسأجيبك دون تأخير.

- إن كان ما يحدث الآن حديثًا وجهًا لوجه وليس محادثة هاتفية، أخبرني عن ردائي وكيف هو شعري ؟ وأي من غرف منزلنا الكبير، أحدثك أنا؟

- ها؟ ألديكِ استجوابات أخرى أيها المحقق؟

- امم كلا، يكفيني هذا.. لأرد بثقة كاسحة:

- رداء نوم وردي كخديك الآن، شعرك مرفوع في كبرياء وخيلاء ولكنه سيتأرجح ثم يركض على كتفيك بعد حديثي هذا بثلاث ثوانٍ، وموقعك هو غرفة نومك، وبالأخص أمام المرآة، الآن أراك تتلفتين يمنى ويسرى وتكادين تخرجين لشرفتك، اطمئني، لست بروميو، ولست أنت چولييت يا قطتي الفرعونية، ها؟ أأُكمل؟ أما زلتِ بحاجة إلى أدلة أخرى؟

- كلا كفى، كفى إنك بالفعل ساحر.

- توقعت أن تنكري أو تكذبيني.

- لست أنا من أفعل ذلك، ولست أنت من يُكذب عليه.

- ربحتِ، إنك بالفعل أنثى فريدة، مزيج متفرد وقاتل، المهم دعينا مما هو معروف بالفعل ولندخل لحصاد اليوم، أخبريني عنه.

- حازم، لا أدري ماذا أقول سوى أنك ملكت مفاتيح أبي دون مبالغة، بل إنه هو من يريد ملاقاتك صباحًا بعد غد في النادي، ما هو ردك؟

- من هم مثلنا لقاؤهم فرض، وعدم حدوثه... تُكمل :

- ذنب لا يغتفر أجل..أجل .

- ما .. ما هذا ؟!

- لست وحدك ملك المفاجآت وقراءة الآخر أو قراءة الطالع.. لتعلو ضحكاتنا معًا ومن ثم نسترسل في مكالمة طويلة ننهيها عند دق الساعات بجانبنا الواحدة بعد منتصف الليل.

لقد ربحت قضية الخلع من الجلسة الأولى ووصولًا إلى موعد تلك الجلسة تلاقينا كثيرًا أنا وكمال البنهاوي، أخذ يسرد لي كل أسراره ومحطات حياته الحافلة والفارقة، لأجد نفسي أبادله سرًّا بسر، صرنا شخصًا وانعكاسه في المرآة، لا فارق بيننا، ولم يكن ذلك صعبًا؛ فالأشياء الجامعة لنا كثيرة، والصعب هو إيجاد اختلاف، ولكنه ظل كلما تلاقت أعيننا يسافر إلى مدن أخرى، لا يأتي به منها سوى صافرة صوتي وترديدي:

- متى تأخذني معك إلى كوكبك السري؟.. يضحك مرددًا:

- وما يدريك أنك لست الكوكب ؟

- يا والدي كيف وأنت مسافرٌ بعيدًا عني وليس بي.

- ما زلت صغيرًا لا تفهم شيئًا مما يدور بعقول من هم في عمري.

- وماذا في عمرك؟! إنك تفوقني شبابًا، أم إنك مما يخشون الحسد وغير ذلك من أمور؟ لتمتد يده إلى أذني جاذبًا إياها في حنان ورفق ولاثمًا خدي، مشيحًا بعينيه عن عيني كمن يفر من جرح لم يبرأ ويتحاشى مسه، وعلى الجانب الآخر ظل إحساسي بسمر كما هو غامضًا وعجيبًا، رباطًا سحريًّا يشدني إليها، أرى الأنثى وأرى الطفلة وأدلل كليهما، ولكن تظل تأسرني الطفلة، وهي صرت عالمها، تطيع كل أموري، ترى الكون بعيني وتسمعه بأذني وتحادثه بلساني، أحببت ذلك ورهبته عندما فكرت في حياتها دوني كيف تكون ، ولكن كل ذلك لم يثنِني عن قضيتي الثانية وينسيني إياها، ولذا كنت دومًا أكمل مهمتي وخطتي بمساعدة سمر، لقد طلبت منها البحث في ماضي والدتها وكل ما يخصه ويخصها من أمور خفيت عنا وقد كان، علمنا أشياء كثيرة زادت الأمر تعقيدًا وزادت من حيرتنا، إلى أن عثرنا على مذكراتها اليومية، لقد كانت تسجل كل ما يمر بها.

ووجدنا جميع المذكرات الخاصة بحياتها منذ زواجها من كمال البنهاوي وصولًا لاكتشافها زواجه من أخرى، فقد كانت تعنون كل مذكرة بالحدث الأهم بها، إلا مذكرة واحدة كانت سوداء مغلقة بقفل ولا يعلوها أي عنوان، كأن لونها كفيلًا بكل شيء، قامت سمر بجمعها معًا وأعطتها لي لقرائتها، وعندما هممت بالتساؤل عن سر ذلك والرفض جذبت يدي ونظرت في عيني قائلة:

- حازم، أنت تعلمني الآن أكثر مني، اعتبره رجائي الأول والأخير، أنا لست بتلك القوة التي أدعيها، نعم سأقولها لك دون خجل ولا مواربة، أنا مثل القنفذ، أشواك وبالداخل وردة تخشى أن تتفتح لكي لا يجرح قلبها، أنا هذا المسمى سرطان الماء، قشور وجروح وركض وفي المنتصف وسادة من ضعف، أخاف ماضي والدتي وأخاف ماضيّ ، بل وأخاف نفسي لو تدري فكن أنا لأيام قليلة وأنقذني مني أو فلتعتبرها أوراق قضيتنا الثانية، ألست مهتمًا بها ؟ وكمحامٍ يجب الاطلاع على كل ما يخص القضية المنوط بها؟ إذًا هيا إلى العمل أيها المحامي الأريب، لنغرق في موجة من ضحك تتخللها نظرات جانبية مني إليها لا تنطق سوى

جملة واحدة، آه منك أيتها الشقية، لأعود إلى منزلي حاملًا صندوقين ممتلئين بتلك المذكرات، أضعهما في غرفة أفكاري وأفر راكضًا إلى النوم وفيه أجدهم أيضًا، سمر، والدها ، ووجوه أخرى لا أدري من هي أو كيف أتت، بحر يناديني وأركض إليها إلى أن يلف المشهد كله اللون الأزرق لأصحو والحيرة تغمرني من مفرق شعري لأخمص قدميَّ لأقطعها بتجهيزي لفنجان من البن العربي وحبات التمر ودخولي إلى صومعتي ممسكًا بالفنجان، غافيًا بجواره حبات التمر مغوية إياي بألتهامها قبل قبلة البن القاتلة، لأفلت منهما لمحيطات مفكرتي وغاباتها، لأبدأ مراجعة تلك القضية التي قلبت حياتي رأسًا على عقب، كيف أربح؟ أو الأدق كيف أرفع قضية حجر على من هو مثله؟ وبعد تلك الصداقة والعلاقة التي نشأت بيننا، وفي نفس الوقت كيف أخذل سمر؟ الحل هو معرفة الباعث لتصرفات كمال البنهاوي ومن ثم إثناؤه عن مسعاه والعودة به إلى نقطة الصفر.

لقد قطعنا شوطًا كبيرًا بإنهاء نوبات غضبه والحفاظ على حالته المزاجية معتدلة، إن لم تكن رائعة، بقي تلك الوصية والنفاذ إلى سبب تغييرها، سألعب لعبة خطرة وليكن ما يكون فأنا دائمًا وأبدًا لا يهمني ماذا يقول من هم حولي، لا أكترث لشيء سوى أفكاري وما أراه أنا، لأنتهي لهذا القرار، بدء قراءة مذكرات عصمت بالمذكرة السوداء، هي بالفعل سوداء فوق كل تخيل وتصور، لا يجب أن تراها سمر نهائيًّا.

احذر من ألاعيبك الخادعة؛ فمهما ملكت من خيوط اللعبة

سيرفع الستار ؛لتري أنك لست سوى بيدق وحيد تحركك

كف القدر .

القطعة السادسة

أرفع هاتفي المحمول وأقوم بالاتصال به، المحاولات تتوالى ولا صوت سوى أزيز الهاتف، في النهاية ينقطع ؛ لتحل محله دفقات الهواء على موسيقى نبضية مترقبة، أقطعها ناطقًا عبارات الترحيب والسؤال عن الحال، ليرن صوته راقصًا، طفلًا تحت زخات المطر، معانقًا حلواه.

أدعوه إلى منزلي ليقبل دون تفكير أو شرط، لتتساقط البسمات على وجهي نجمات السماء، تنهمر لينهي كلانا المكالمة بفرحة وشوق، أن يكون اللقاء المرتقب يلي تلك المحادثة، ثم يأتي يوم لقائنا الحبيب، لأكون قبل الموعد بساعة قد أعددت المائدة عامرة بما لذ وطاب ، ثم أجاور الباب مرتديًا بنطالًا "جينز" "وچاكيت توید" أزرق بأسفله قميص أبيض دون ربطات الخنق، واضعًا عطري المفضل "دارك بلاك" مصففًا شعري كما يجب أن يكون، لأنتهي منه وجرس الباب يدق قبل الموعد بعشر دقائق على الأقل، أفتح فأجده هو الآخر مرتديًا زيّي نفسه غير أنه معكوس ، القميص أزرق، "والچاكيت" أبيض.

يضحك كلانا، وأنا أمد يدي مصافحًا إياه ومن ثم معانقًا لآخذه دون كلام كثير إلى المقعد الذي جهزت له، ليحتسي البرتقال، لأقطع عليه أي سبيل للرفض، أتناول أنا الآخر كأسًا مثله قائلًا:

- القهوة ستأتي ولكن ليس الآن.

- ولمَ؟

- ألا تعلم أنها تلك الفاتنة التي تهوى التدلل على عاشقها وكلما تدللت ذاب أكثر وأكثر ليكون لقاءهم انفجارًا كونيًّا عقليًّا حسيًّا شغفيًّا.

- كفى .. كفى، إنك بالفعل عاشق وفيٌّ لها، دلهٌ بها.

نرفع كأسينا ونحتسي مشروب الانتعاش والإشراق، يبدأ حديثه متطلعًا حوله:

- أنت تبهرني في كل شيء، أتصدق أني أغبطك..

- أنا؟ تغبطني أنا!

- أجل، لديك كل ما تهوى، حر متحرر من كل قيد.

- امم، وألست أنت مثلي؟

- كلا.

- ولمَ؟

- الشرح يطول، ولكن بالاختصار أنا القيود كثيرة، ليس معنى أنك لا تراها أنها ليست موجودة.

- أقنعتني، ولذا هيا بنا الطعام يناديك.

- ما أغرب ما أختبره معك وأشعر به! إني في أحيان كثيرة أشعر أني طفل وأنت والدي، وفي أوقات أخرى العكس، وفي كلتا الحالتين لا أملك إلا أن أحب الشعورين.

أقترب منه مقبلًا كفه ومن ثم رأسه لأجلسه على رأس الطاولة، وأنا بجانبه لنتناول الطعام في غيمة من مشاعر دافقة، لا ندري معها أكنا نتناول الطعام أم نتناول الشهي من الود.. والحنان؟

ننتهي من وجبتنا لنعود لمجلسنا السابق لتحط فكرة صاروخية برأسي فأخف إلى تنفيذها فورًا دون تأخير قائلًا:

- ما رأيك باحتساء فاتنتنا بالشرفة؟

لينظر إليَّ متسائلًا: أي شرفة؟ ولمَ؟ ألم تقل أنك جهزت هذا المقعد وهذا المجلس من أجلي خصيصًا؟

- أجل ولكن بعد قولك وسردك عن قيودك أجد أن هذا الاقتراح سيحدث معك فارقًا كبيرًا.

- أم إنك لا تثق بي؟

- كلا، ما هذا؟ أنا أثق بك ثقة تفوق ثقتي بكفي هذا، بل نفسي وعقلي، قد لا تصدقني وتراها مبالغة أو مجاملة، ولكن تلك هي الحقيقة دون مواربة، ولتظن وتفكر بما تشاء.

أخفض عينيَّ أرضًا حياءً وفخرًا، أخاف أن أنتشي به، وهو الأحرى به، أن يظل طليقًا في قلبي، راقصًا وليس في نظراتي ليمد كفه إلى كفي، علامة الموافقة على ما أريد، ومن ثم بدأت بإرشاده لتعانقني تربيتة من أنامله لأناملي تقول وتشي بالكثير، لنصل إلى الشرفة فنجد المقاعد الوثيرة والإضاءة الدافئة والمائدة في كامل زينتها تنتظر معشوقتها السمراء ومعشوقتنا جميعًا لآتي بها يرافقها التمر في ذلك الإبريق

النحاسي والأكواب العربية والصحف المتلألئة بالخطوط العثمانية لأنتقل به من غرب الأرض لمشرقها وأبدأ حديثي مع اعتلاء وجهه تلك النظرة المحلقة التي كست وجهي مثله عند جلوسي بتلك الشرفة لأول مرة متسائلًا:

- أتحب سمر؟.. ليقف الكوب في منتصف الطريق لثغره ثانية واحدة لا أكثر ليكمل طريقه لتنطلق الساحرة في مسامه ودمائه كضال في صحراء لم يذق الماء أيامًا وأيامًا، وتلك المرة الأولى بعد أيام من جفاف، فيكون الإشراق والحياة، لينطق بعدها في ثبات وهدوء عجيب هز ثقتي في كل شيء..

- وما هو الحب في نظرك؟ وهل العلاقات التي وجدت دون خيار منا يشملها الحب أيضًا إلزامًا؟ وهل يحظر الحب خارج رابط الدم؟ بل وهل يظل الحب حيًّا لثمرة خيانة؟ هل لديك القدرة على حب أبناء الحية بحجة أنه لا ذنب لهم في كونها كذلك؟ أجبني يا من اتخذت تحقيق العدل حرفتك والمنطق بابك الواسع ووسيلتك.

- ماذا؟ ماذا تقصد بذلك؟ أوضح ودع الألغاز والأحاجي جانبًا.

- ومن قال إني أفعل ذلك؟

- ردك.

- كلا؛ بل هو عقلك الذي يرفض استيعاب الحقيقة لبشاعتها.

- أي حقيقة؟ وأي بشاعة؟

- آها، إذًا تريدها عارية ؟ لك ذلك سمر ليست ابنتي ولن تكون، ولكن كنت مغيبًا واهمًا إن الحية لها حد وسقف لخيانتها، وأمواج سمها لم يطرق على باب عقلي إطلاقًا هذا الدنس والعفن والبشاعة التي فاقت كل حد وتخيل.

- ولمَ الآن؟

- ربما هو القدر، رأف بي ورأى أن عقوبتي قد حلت بي كما ينبغي أن يكون، وحان موعد حريتي وحصاد صبري، لأرفع كفي على جنبي رأسي علامة الحيرة والضجر وعدم الفهم والألم، ليمد كفه ساحبًا يدي من موضعها مثبتًا عينيه بعيني قائلًا:

- سأفهِمك ولكن أدعو الله أن تحتمل ما كاد أن يودي بي وبعقلي وبكل شيء لديَّ.. ليفتح "الچاكيت التويد" على مصراعيه فيسحب من جيبه الداخلي مظروفًا متوسط الحجم، رهيب الأثر يكلله لون المظروفات الحكومية البني المصفر، أو الأصفر الباهت، ويضعه على المائدة أمامي بجوار كوب القهوة الذي أصبحت أنا أغلِي مثل حاله منذ دقائق، ولكن تبادلنا الحرارة، الآن أصبح هو باردًا وأنا أفور غليانًا ، فيقول:

- توقعتك وتوقعت لعبتك الخطرة، أتظن أني لم أقرأك منذ دخولك إلى منزلي؟ قرأتك، ولكن أعجبتني اللعبة وذكاءك وثقتك وقبل ذلك كله أحببتك، وها أنا ألقي الحقيقة بين يديك وصندوقي الأسود كاملًا، اقرأه الآن هيا، ولك مني كل صدق وصراحة، وسأفعل ما تقول أيًّا كان قولك، فقد مللت كل شيء، الخداع، الكذب، الخيانة، لا أريد إلا السلام والراحة، وقبل كل ذلك راحتك أنت، أنا أصبحت لا يهمني في الكون سواك، سمه جنونًا، هوسًا، كما تريد، ولكن هذا إحساسي، لقد حسنت علاقتي بسمر فقط لأنها كانت سببًا لرؤيتي لك، ولكني على الجانب الآخر لا أثق بها وبمسعاها وما تريده منك.

إني كلما رأيتها أشعر كأنما حية تتبختر في ثوب القطة، ولكن ديدنها لا يتغير، الخيانة، ولكن قد أنهيت كلامي والكرة الآن في ملعبك، فلتفعل بها ما تشاء، وأنا رهن إشارتك وسأنصاع لأمرك.. لأجدني صامتًا صمت القبور، يتبدل وجهي ما بين الأزرق والأحمر وهو كعصفور ذبيح يركض في كل زاوية مرة ليأتي لي بالماء المثلج، وأخرى بحبات مهدئة، وثالثة بجلوسه بجانبي معانقًا إياي في تحنان أبوي زلزل كياني واجتاح كل حواسي وددت معه لو ظللت الباقي من عمري هكذا، ليزيد قوة عناقه لي كأنما شعر وسمع حديث قلبي، لأفيق مما أنا فيه وأقتل دمعة كادت أن تنفلت من بحيرات عينيَّ وأطمئنه بقولي:

- اطمئن يا والدي، لا تقلق، أنا بخير؛ فخيري وراحتي هو وجودك وصوتك ودفء عناقك وكل ذلك معي، ألا أكون بخير؟!.. ليضحك مع ضحكتي ويجذبني إليه مرة أخرى قائلًا:

- لقد أفزعتني، خشيت فقدانك.. لأرد أنا:

- وماذا عنك أيها الطائرة النفاثة؟ لقد أخذت حجرات منزلي "ماراثون" لتركض فيه هنا وهناك أبي ..أبي ماذا؟! أنت ابني وأنا

والدك، ليذوب جليد اللحظات السابقة، ويلتئم جرحها العميق لتنتهي جلستنا المزلزلة بوعد مني بإيجاد مخرج لهذا الوضع مع راحة جميع الأطراف.

* * *

أنا جالس الآن في غرفة مكتبي يتطاير منها دخان من جراء براكين نفسي وعقلي المشتعل، ممسكًا بذلك المظروف تجاوره تلك المذكرة السوداء لأفتحه وأسكب ما بداخله أمامي لأجد فقط بضع ورقات برائحة عمر يحترق ودموع تسيل ندمًا عليه، بل دماء وصورة فوتوغرافية صغيرة، لم أهتم بها، لأجدني أبدأ بتلك الورقات ليطالعني ما أذهلني لأجدني أقفز مختطفًا الصورة لأكتشف اختفاءها ليثور بحر جنوني ويعلو موجه، أدفع كل ما على مكتبي أرضًا، فتتطاير أوراق الملفات ، وتتحطم تلك التحفة الخزفية الأثيرة لديّ، لأجدني أخرج من نوبتي مع انتباهي لتحطمها لأغرق في لحظات حزن عابرة أو بالأحرى لم تطل، وذلك لعثوري على مبتغاي، لقد وجدت الصورة أسفل حطام تحفتي فأقفز

فرحًا ناسيًا إياها، مأخوذًا بالصورة وإيجادي لها لأطالعها باستغراق شديد كأنها الموناليزا بين يدي، أو إحدى حور الجنان، أو ربما الثمرة الأخيرة على الأرض، نفس العيون و النظرة واللون، تناسخ غريب، مليكتي الفرعونية عادت ملامحها ورُسمت على وجه إنسان آخر، بل الأصح رُسمت ملامحه هو مرة أخرى، ما هذا التشابه الإعجازي؟ آه يا سيد كمال، يحق لك ما فعلت وأكثر، لا ألومك، ولكن مهلًا، هنا في المذكرة تقول ليقفز باحثًا عنها ويده لا تترك تلك الصورة الذابحة، ليجدها وبجوارها ورقات المظروف ليرفعها جميعها بين يديه ويجلس أرضًا واضعًا إياها أمامه، ليبدأ تجميع أكبر بازل في حياته كلها، بل هو بازل حياته بأكملها.

الساعة قاربت الرابعة فجرًا وحازم ما زال كما هو في جلسته الأرضية، ولكنه الآن حاله ليس هو حاله، عند دخول غرفته فهو الآن حطام إنسان، إنسان حطم عالمه بالكامل، أو ربما على وشك التحطم، ولكن ينقصه لمسة صغيرة وهو الآن في سبيل فعله بإيجاد المظروف ورؤية الخط الذي يزينه، كاتبًا عنوان المرسل إليه، ليصدق إحساسه وحدسه،

ويسقط متحطمًا مع تكبيرة أذان الفجر ليترافق سقوطه مع سجوده بين يدي الله باكيًا، صارخًا، راجيًا، فيكون سقوطه حياة أخرى تُكتب له بنهاية جديدة وبداية أخرى لا تخطر على بال.

واكتملت اللوحة .. أتُراها اكتملت ؟

القطعة الأخيرة

مازال جالسًا بغرفة مكتبه يذرعها ذهابًا وإيابًا منتظرًا وصول الساعة إلى السابعة، ليبدأ عمله، ومن ثم البدء في تنفيذ خطته الجنونية، وفي تلك الأثناء جلس يقرأ في مصحفه الأزرق، تجاوره فقط قارورة باردة من المياه كلما ذهبت عنها برودتها قام من مجلسه وأتى بغيرها ليتجرعها متناولًا حبات التمر، محافظًا على نفسه من السقوط .

تأتي الساعة السابعة مع إنهائه سورة يوسف، يمسك بهاتفه متصلًا على عم صابر مبلغًا إياه عدم مجيئه اليوم للمكتب ولمدة أسبوع قادم، ووجوب إبلاغه للعاملين بالمكتب بذلك نيابة عنه، وإذا استفسر أحدهم عن السبب فليخبره بسفره لأمر ضروري.

يوقفه عن إنهاء مكالمته عم صابر نفسه سائلًا إياه:

- وهل تلك الحقيقة أم هناك أمر آخر يا بني؟.. يصمت لثوانٍ قليلة وشت بالكثير ليقول عم صابر له:

- لا داعي لتفسير موقفك أو قول ما لا تريد قوله، ولكن كل ما أرجوه منك أن تكون بخير لأجلي يا ولدي الحبيب، وتذكَّر أن هناك من يهمه أنت قبل كل شيء، وليس أي شيء آخر ولذا فلا تبخل عليَّ بمكالمة صغيرة من آن لآخر، وعندما تأخر في رده ما لبث أن قال : حفظك الله أينما كنت ورزقك الخير والعافية والسلامة من كل شر، لينطق نصف الشهادة ليكملها حازم متبعًا إياها:

- والدي سيكون لك ما أردت، ولكن كل رجائي لا تنسني من دعائك هذا، ولا تحزن مني أو تغضب مهما رأيت وسمعت عني الأيام القادمة، وداعًا.. لتنتهي المكالمة التي لم ولن ينساها عم صابر ما بقي من عمره.

يكمل حازم ما عزم عليه ليقوم باتصالات كثيرة مريبة ومخيفة تنتهي بعودته إلى مكتبه مخرجًا حافظة الأوراق الخاصة بكتابة الرسائل الورقية الهامة، واضعًا بجانبه ثلاثة أظرف فقط لا غير، اثنين بالعنوان نفسه، والأخرى بعنوان مختلف، ليبدأ بكتابة رسائله وينهيها مذيلًا إياها باسمين عمر وحازم، لينام ساعات قليلة لا تجاوز الساعتين ليستقيظ في

العاشرة فيرفع الهاتف طالبًا من حارس البناية الإتيان بالخادمة اليوم وقيامها بمهامها المعتادة ولكن دون الاقتراب من غرفة المكتب، وذلك فور نزوله في الساعة الحادية عشرة، ثم يبدأ طقوسه من أخذ حمّام سريع وتبديل ملابسه وتصفيف شعره واحتساء عصير البرتقال الطبيعي مع سندويتش واحد لا غير يحوي الجبن قليل الملح بمصاحبة شرائح الطماطم والفلفل الملون، لينتهي منهم ويقوم بغسل يديه سريعًا ثم يعود لغرفة نومه لوضع اللمسات الأخيرة من هندامه، العطر القوي وارتداء ساعة اليد وتصفيف شعره مرة أخرى ومن ثم يحمل حقيبته المجهزة كالعادة وهاتفه المحمول وسلسة مفاتيحه الفضية ليمر في الحادية عشرة بجوار حارس العقار مثلما قال، يلقي عليه السلام مؤكدًا عليه ما سبق وأمره به.

يخفض رأسه ويرفعها بمعنى كل ما أمرت به نُفذ، لتتهادى الخادمة بجوار كتفه ملقية السلام في سرعة واستحياء يعقبه هرولة منها إلى درجات السلم ليرفع حازم صوته:

- لا داعي لهذا، يا محروس، اجلب لها المصعد.

- ولكن... ليقاطعه:

- أنا من قلت أيًّا كان من يريدني يستقل المصعد، عامل أو ضيف أو أحد عملاء مكتبي، أفهمت؟.. فيذهب ولكن بعد إعطاء الحارس أجرة الخادمة والإكرامية له حتى لا يطمع في أجرها أو يأخذ منه؛ فهو يعلم جيدًا دأب تلك الفئة وأفعالها، ثم ينهي حديثه بقول أريد رقم هاتف الخادمة أو أي وسيلة للتواصل معها عند عدم وجودك والحاجة إليها، كأنما يحذره من التفكير أو الطمع في أجرها، حتى مع إعطائه تلك الإكرامية، فهو قد نشأ على عدم الثقة سوى بالنفس والعقل، فالعين قد تخدع، و الثقة العمياء بالقلب قد تهلك، والناس كالدنيا فصول، فلا أمان لمن له مواسم ورياح وعواصف وجليد وقيظ، وبالطبع لا أمان للدنيا ليحصل عليه.

ينطلق بسيارته إلى الشهر العقاري ليصل في الثانية عشرة وبضع دقائق، يدلف بمجرد وصوله إلى مكتب حسين صديقه والذي سبق وحادثه صباحًا قبل مجيئه بساعات ليجده في انتظاره متهلل الوجه

سعيدًا، وبجانبه عامل البوفيه الذي استدعاه بمجرد وصوله ليسأله عمَّا يشتهي من مشروبات، فيرد:

- أنسيت بتلك السرعة؟

فيرد ضاحكًا:

- كما ظننت أنت كما أنت لا تتغير، وإن تغير كل من حولك، اثنين قهوة مضبوطة يا عم محمد، رافعًا يدي فيضحك ويقول:

- واقلب الدنيا والمصلحة كلها واجلب لي تمرًا، وليس أي تمر؛ أجوده، أفهمت؟ ليغمز بما معناه والثمن ؟ ليضحك قائلًا:

- لا تقلق يا عزيزي ستحصل على ما تريد، واليوم وليس آخر الشهر.. ابتهج ليطير مسرعًا كأنما يخشى رجوعه عن قوله، ألتفت إليه ضاحكًا، بدأ وصلة من المزاح تتخللها إخبار كل منا للآخر عن أحواله، وتنتهي تلك الجولة الإخبارية السريعة بوصول فنجاني القهوة برفقة أشهى تمر تذوقته دون مواربة، لتعلو ابتسامة مشرقة وجهي طالت كل من حولي، ينطق حسين:

- لقد شرفتني أخيرًا وبحق، لتعلو السعادة وجه عم محمد هو الآخر فيقول:

- ضيفك وجهه خير، بل لا أبالغ إن قلت هو من أنقى من عرفت رغم أنك عكس ذلك، ليمسك لسانه بعد فوات الأوان قائلًا محاولًا تلطيف ما انزلق لسانه به:

أقصد أنه يفوقك نقاءً ليهدئه قائلًا:

- قل ما شئت يا عجوز لا تخش شيئًا، فأنا اليوم سعيد لسعادته وسأتغاضى عن فلتات لسانك من أجل خاطره، أضحك وأشكره على صنيعه من قهوة رائعة وتمر ولصديقي أيضًا على هذا الترحاب الحار ليصرفه فيرد عليَّ :

- ليس بين الأصدقاء مثل تلك الأمور، إلا إذا كنت تراني غريبًا.

- حاشا لله؛ أني أراك أخًا لم تلده أمي.. لنواصل حديثنا وصولًا إلى السبب الرئيسي لحضوري إليه، واحتياجي لصميم عمله لأنتهي مما أريد، وعلامات الدهشة أشرقت على أنحاء وجهه، ولا يبدو أن لها

غروبًا ثانية، ليستجيب لي ويبدأ بأخذ الإجراءات لتحقيق مطلبي والدهشة لا تغادره، ليتم مرادي، فأقوم واقفًا منهيًا تلك الجلسة على وعد بلقاء قريب خارج أسوار العمل، يزيل كل علامات الاستفهام والدهشة، ليعانق كل منا الآخر في عاطفة أخوية حقيقية، تعلمني أن الرابط بين الناس ليس فقط رابط دم، آه أيها الشيخ الجليل الحكيم، هل الحب إلزامي في علاقة يربطها الدم ومحظور خارجها؟! أخرج من موجة مشاعري والعمق المهاجم لي مناديًا عم محمد مودعًا إياه ومعطيًا له "كارتًا" بأرقام هواتفي طالبًا منه رقم هاتفه ومن ثم أذهب إلى سيارتي وأعود بصندوق الشيكولا السويسري الفاخرة الذي قمت بشرائه في طريقي من أجل صديقي ولكن تذكرت أن ذلك لا يجوز أثناء عمله منعًا للقيل والقال، لأقرر قيامي بمهاداته في يوم آخر، ولكن بعيدًا عن محل عمله، لينتهي الصندوق ويكون من نصيب عم محمد، بعد جميل فعله الذي لا يسع أحدًا أن يلومني إن أهديته هذا الصندوق بعده، ليبعد يديه ويتراجع إلى الخلف خجلًا، فأرده بقولي : رسولنا الكريم قبل الهدية، ألا

تقبلها أنت؟ فتعلو الابتسامة وجهه مع ارتفاع صوته بعبارات الشكر الحارة، لأوقفه بجذبه إلى جانبي قائلًا في أذنه:

- كفى ألا تخشى أن يتخطفه الوحوش خلفنا؟ ليضحك حتى كاد يقع أرضًا ويقول:

- لديك كل الحق، يا لغبائي، ماذا أفعل الآن؟

- كهربها.. ليرد ضاحكًا:

- أجل يا لها من فكرة لامعة.. لنضحك سويًّا فأرد قائلًا:

- لا تخشَ شيئًا فليأكلوها، وعد مني سآتي لك بالأفضل منها، والآن فلتمسك بتلك الدعوات.

- ماذا؟

- أجل، إنهما دعوتان لذلك المطعم الذي أحبه، مطعم أكثر من رائع، وقتما شئت اذهب وقبل ذهابك فلتخبرني ولو باتصال أو رسالة صغيرة وسوف ترى، ها ما رأيك؟.. ليقف ثوانٍ مذهولًا عند قرائته اسم المطعم، لأطمئنه:

- يوم تذهب ستكون أنت النجم يا عم محمد ثق في ذلك، وداعًا.. لأتركه في دهشته وحيرته وأكمل بقية خطواتي التي قمت برسمها سابقًا.

ذهبت إلى ذلك المشفى الحكومي لمقابلة أحد عملائي السابقين، استقبلني بذلك الترحاب الشديد تلاه دعوتي إلى مشروب في كافتيريا المشفى، لكني لم أدع مجالًا لذلك بنظري إلى ساعتي وإخباري إياه بأن جدول اليوم مزدحمٌ جدًّا، على وعد بالتعويض في مرات قادمة، فانصاع لأمري على مضض لنبدأ حوارنا الخافت الذي انتهى بإيماءة رأس منه وتبادل بعض الملفات على هواتفنا وتحديد موعد آخر بيننا خارج أسوار المشفى، لأنتهي من خطوتي الثانية والأهم، لأذهب بعدها إلى ذلك المطعم المعروف لأتناول غذاء سريعًا لأول مرة منذ فترة طويلة بعد اتباعي لنظام غذائي صحي ليخف عمال المطعم إليَّ سريعًا مذهولين لزيارتي أخيرًا له بعد تلك الفترة الطويلة، ليتبارون في خدمتي بترشيح الأفضل جودة ومذاقًا، لينتهي الأمر بي واضعًا تلك الوجبة الضخمة من السندويتشات والمشروب الغازي الأكبر حجمًا، وأصابع البطاطس المقلية الغارقة في الجبن الساخن والذائب يكللها تلك التوابل المميزة

بجانبها تلك "الصوصات" المعروفة، أشرد عنها غارقًا في بحر أفكاري المبعثرة وأمواجه المتلاطمة، ويعيدني إليها اتصال هاتفي، لأرى اسم سمر ينير الشاشة، أتامله لحظات قليلة ما ألبث بعدها أن آخذ قراري لأجعل هاتفي في وضع الطيران، وأبدأ في استخدام ذلك الهاتف الآخر ذي الرقم الخاص، الذي كان أحد هدايا عميل لربحي قضية له كان قد فقد الأمل في ربحها، وقد كنت أمله الأخير والقشة التي تعلق بها، لتعبر به إلى بر الأمان وقد كان له ذلك.

الآن أنا جالس أمام وجبتي، أنظر إليها ولا أنظر، أريدها ولا أريدها، لتنتهي تلك الحالة المتأرجحة بتناولي لأصابع البطاطس في سعادة عابرة كسعادة طفل بحلواه، أنتهي منها مناديًا القائم على خدمتي، طالبًا الحساب، لينظر إلى الطاولة وإليَّ مندهشًا فأوقفه عن ذلك ممازحًا إياه:

- يبدو أن النظام الصحي قد صار يجري في دمائي لدرجة تجعلني لا أتمتع ولو بنزوة غذائية صغيرة... لتحل بسمته محل تلك النظرة الدهِشة، لأدفع فاتورتي تاركًا له بقشيشًا سخيًّا وأهم بالمغادرة فيوقفني سائلًا

إياي عن مصير وجبتي، فأقف حائرًا لثوانٍ قليلة يخرجني منها باقتراحه لفها لي ووضعها أمامي لآخذها في يدي لتكون وجبة لأول سائل يطرق باب كتفي قبل صعودي إلى سيارتي المصفوفة بذلك الجراج على بُعد بعض الشوارع من ذلك المطعم.

آخذ خطوتي الثالثة والأخيرة لأعود إلى منزلي، حاملًا حفنة من الدموع وجرح بعمق العمر كُلِّه ، وألم البشر مجتمعين منذ أبينا آدم إلى يومنا هذا، ونارًا تأكل الأخضر واليابس، وهاتفًا يحمل بداخله خيوط النهاية.

أغفو بضع ساعات قليلة ...ثم أصحو ملتقطًا هاتفي الآخر لأقوم بتلك المكالمة السريعة، لأنطلق بعدها إلى الطريق والساعة قد تعدت منتصف الليل والجميع نيام ببنايتي، حتى حارس العقار، أستخدم مفتاحي الخاص للخروج منها دون أن يشعر بي أحد، لأصل إلى وجهتي حاملًا تلك الأكياس البلاستيكية واللفافة المتوسطة الحجم ذات الغلاف البني لأسلمهم إلى ذلك المتخفي بالظلام والمرتدي الليل وشاحًا ورداءً ووجهًا، لأتركه مع ما أعطيته إياه وأعود إلى تختي كأن شيئًا لم يكن

لأصحو مع أذان الفجر وأظل أنظر إلى هاتفي الأساسي، رفيق سنواتي السابقة، وليس أيامي الحالية، أجدني أتصل بسمر أسمع صوتها الملتاع ولهفتها الباكية كأنما كانت تنتظرني منذ ألف عام وهي على ثقة تامة أني سآتي إليها وستعانقني بجزعها وخوفها وشوقها، لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أبكي دون صوت، ألقي بأحمال دهر.. عمر وهي ذلك البحر، ظللنا على هذا الحال دقائق، ساعات... لا أدري كم مر علينا، لكنها ظلت في عناقها الصوتي تربت على قلبي وتضمد غصون جراحي.

أجدني أناديها بمشاعر لا أدري كنهها لتتفتت في محراب قلبي وصوتي وتهبط من سماء الأمومة الحانية لتصير طفلة تائهة ولا غيري بوصلتها، لنتبادل الأدوار وأعانقها بقلبي، بصوتي، بأنفاسي ودمعي، لننهي تلك المكالمة معًا بأنفاس تكتم ، لتليها انفجارات مدوية على سجادة صلاتنا.. سمر.. سمر.. سمر يا وجعي وفرحي، يا جرحي وترياقي، يا طفلتي وحبيبتي وشمسي وسمائي، يا نور قلبي وأنواء بحره.

وأظل على هذا الحال من البوح والانكسار والفوران إلى أن أنهي صلاتي وبث حزني إليه، من ليس لي سواه، ليذوب غيم قلبي وتنقشع

سحبه ويشرق ثانية بعد الأفول، أذهب لتحضير إفطاري البسيط وكوب البرتقال دون إضافات لأتناولهم وأذهب للركض كعادتي، وأعود سريعًا إلى صومعتي لأضع لمسات خطتي الأخيرة، بادئًا إياها بمحادثة حارس العقار وإخباري له بسفري في الساعة العاشرة إلى الإسكندرية بسيارتي وتغيبي عن المنزل فترة تتراوح بين الثلاثة أسابيع أو الشهر، من ثم ترك مسؤولية شقتي ونظافتها له حتى عودتي، مع تأكيدي عليه عدم الاقتراب من غرفة المكتب، تلك الغرفة المغلقة التي سيكون مفتاحها معي أنا فقط.

يبدأ في تلك الوصلة الكلامية، تذهب وتعود بالسلامة، صاحبك الخير والتوفيق وكان النجاح والسداد حليف خطاك ومسعاك، فأجيبه بتلك الردود التي حفظت وصار ترديدها حركة طبيعية دون إرادة أو تدخل منا، كتنفسنا على سبيل المثال، أنهي المكالمة سريعًا وأبدأ مكالمات أخرى يغلفها الغموض وقلة الحديث وقصر الوقت ، حتى أنتهي منها واضعًا الهاتف على طاولة الصالون لأقف وأذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا قبل تملكي لزمام نفسي وقيامي بمكالمة مهمة.

أجل هو كمال البنهاوي والدي، لقد ظللت أتحاشاه ليومين كاملين ولكن كفى، كفى ترصدًا وألمًا وعذابًا بلا حد، تكفيه نيران روحه المشتعلة التي لا أرى لها انطفاء، أمسك الهاتف، يخونني لساني بين أبي الأولي وأبي التي أستشعرها الآن، ليلتقطني هو بيد من فولاذ وحب، يلتقطني بكلمة:

- صغيري، ماذا بك؟ أأثقلت عليك بصراحتي السابقة بذلك اليوم وبوحي؟ إن كان ذلك فسامحني وانسَ كل ما كان انسَ.

- وهل ما كان يُنسى؟! ولكن لا، لا يجب أن أقول شيئًا أو أشعره بشيء الآن، ولذا نطقت وقلت:

- كلا؛ بل أنت سامحني لانشغالي عنك طوال الأيام السابقة، ليرد:

- إذًا دع السماح ما دمت ترى أن ما كان لا يستحق، والأمر كذلك بالنسبة لي، ولننطلق لمعرفة حالك، كيف هو؟ وماذا فعلت أيها الشقي الليالي الفائتة؟ أهي عصفورة جديدة؟ فأنفجر ضاحكًا قائلًا:

- لقد غادرت العصافير الأغصان منذ زمن.

- أشاعر أنت أم مكتئب كبير؟ لأرد ثانية:

- أخبرني أنت أيها العالم بي أكثر مني.. ليصمت قليلًا ثم يقول:

- ما عدت أعلم شيئًا، غامت رؤيتي، وقلبك كقلبي يحمل الكثير الكثير، ولكن من أين القوة لتحمل قليله قبل كثيره؟.. فأقول له:

- ألم أقل لك تعلمني أكثر مني؟ لقد وصفت ما أحياه وأعجز عن وصفه!

- ليست فطنة؛ بل هو حالي حالك.

- هو ذلك، ولكن صدقًا، كيف النظر لعصفور، ولدي، حسون، بديع، لدي فاكهة الجنان وبدر ينزل من عليائه لأجلي ويأتي لي بالسماء أرجوحة وطاولة وكأسًا.

- من؟ من تقصد؟

- وهل هناك غيرها يا مالك مفتاح النعيم والسعادة المطلقة؟ أجل، هي سمر.

- ماأسعدها بما تكنه لها.

- بل ما أسعدك أنت بها معك.

- بل سعادتي أنت وحديثي معك .

-وهي؟ .. ليصمت صمتًا موجعًا أقطعه بسؤالي له:

- وأنت ألم تجد عصفورتك؟.. فينفجر ضاحكًا:

- أنا! وفي سني هذا؟.. لأجيبه:

- وما دخل هذا بالسن؟ ومنذ متى كانت لهذا شروط أو قيود؟ ولكن انتظر هنا، تتحدث عن السن، وأنت يا من يراك يظنني أنا والدك؟ آه يا جاحد، يا.. لا لا، سأصمت، لا داعي لسلاطة اللسان؛ فأنت رغم شبابك وتهورك والدي اللذيذ.. ليجيب:

- حقًّا؟! على أساس أني قطعة من الحلوى أو اللحم المدخن والخضار السوتيه؟

- أي نعم، سوتيه جدًّاعلي الآخر .. يضحك كأنما يراني وأنا أقولها وليس فقط يسمعها، لننهي المكالمة ضاحكين على وعد بلقاء قريب، أحاول التملص منه بموافقتي على ذلك دون وعود؛ فالوعود قيود، ونحن لسنا

من محبي القيود؛ بل نحن محطمون لها.. تنتهي مكالمتي الأخيرة وأنا في قرارة نفسي تتردد جملة: لست محطمًا للوعد أنا؛ بل أنا الرجل الذي إذا وعد فعل ولكل قيد كسر. أنطلق بعد حديثي معه إلى غرفتي لأجهز حقيبة متوسطة الحجم، أضع فيها ملابس تكفي المدة التي سأتغيبها ما بين ملابس نوم وملابس تنزه وملابس سباحة وتلك الأدوات الشخصية من فرشاة شعر لفرشاة أسنان وعطري الأثير وغيرها من أمور، وتلك الفلاشة التي أوصيت أحد محاميّ مكتبي بوضع بعض الأغاني الحديثة بها، بعيدًا عن الأغاني المسماة بالمهرجانات، أو تلك التي يسمعها سائقو الاختراع الجديد الذي ضر أكثر مما نفع المسمى توكتوك، إنه كارثة كبيرة الأثر صغيرة الحجم كم أمقته ولكن هذا هو حالنا كل ما يمقت ينتشر، محبون نحن للفوضى أو الفوضى مُحِبة لنا، لا أدري بحق.

أضع الحقيبة بجانب تختي والفلاشة بجواري على الكومود تجاورها سلسلة مفاتيحي ومفكرتي التي صارت رفيقة أيامي، وذلك القلم الفضي، وهاتفي وساعة يدي وحافظة نقودي، لأغفو بضع ساعات وأصحو في تمام العاشرة مساءً، أرتدي ملابسي سريعًا بعد أخذ

"دش" سريع وحلاقة ذقني لأصفف شعري في النهاية، غارقًا في موجات عطري.

ألتقط الحقيبة والمفكرة وسلسة المفاتيح، لأضعها بجيب سترتي ومعها قلمي الفضي والفلاشة، مرتديًا ساعتي وواضعًا الحافظة بجيب بنطالي، أذهب لباب شقتي مترددًا حائرًا، تتخطفني أنياب أفكاري الذارعة عقلي ذهابًا وإيابًا دون ذرة من رحمة، لأقيدها بحبال من حديد وحزم بإصراري وعزمي وحبي اللامتناهي لها، أجل هي، وهل هناك سواها من يستحق هذا الحب الرقراق والخاص؟

أجدني أمام المصعد، أدلف إليه ليحملني إلى قدري الرمادي الخطى، أنزل منه لأعطي حارس العقار تعليماتي الأخيرة ومن ثم معانقًا إياه لأدهشه كحالي دومًا مع من حولي، يرون القوة والجمود مني، وعندما يرون ثمار الساكن يساري، بل ثمرة واحدة من ثماره يغشاهم الجمود والصدمة.

حسنًا، إنني أهوى ذلك جدًّا، فلست أنا من يحب المعتاد ويألفه، أتركه لأسير الآن إلى سيارتي بخطى ثابتة وواثقة دون اختلاجة أو بعض

من تردد، لأصعد إليها بعد وضع تلك الحقيبة بالكرسي الخلفي لأجلس خلف مقود السيارة فاتحًا نوافذها كعادتي، ملتهمًا الهواء المنعش والحقيقي من حولي، بعيدًا عن جو الصناديق الزجاجية ومكيفات الهواء، أتخذ الطريق الزراعي لوجهتي عروس البحر الأبيض، بمجرد خروجي من العاصمة بزحامها أزيد سرعتي كصاروخ منطلق على الأرض، لا يحدني شيء، ومشغلًا تلك الفلاشة لتصدح أنغامها فتزيد حماستي ومن ثم سرعتي في القيادة، وبالأخص مع أنغام وكلمات تلك الأغنية الجديدة لرائعة الصوت أصالة/ مين فينا.

أحلق بأفكاري إلى واحة تساؤلاتي الجدلية العميقة، متسائلًا، كيف يمكن لأغنية أن تلخص كل حياتنا في بضع كلمات قليلة؟! لكنها تحمل الكثير، مخطئ من ظن الفن والإبداع بكافة أشكاله محض ترف أو أحد أدوات الترفيه، كلا، إنه حياة، حياتنا، أعماقنا وأشباحها التي نخاف في أغلب الأحيان مواجهتها، إنهم أناس غاصوا في الأعماق ليأتوا بالجواهر، بالأحلام، بشعلة عصية على الانطفاء، أتوا بأرواحنا التائهة والمنسية بإرادة منا، أو دون علم أو بعلم، ولكن عدم وجود قوة لمجابهة كل ما

يسلبنا إياها، أو طاقة لخوض حروب من أجلها والحفاظ عليها كما هي، لأذوب كيانًا، روحًا، أعصابًا، دماءً، كلي وبعضي وكل ذرة فيَّ مع كلمات الأغنية:

مين فينا حدد لون عينيه؟!

ويوم ولادته واسمه إيه؟!

فيه حاجات كتير كده في الحياة

موجودة وما نعرفش ليه

زي طير مد الجناح

فوق الألم .. فوق الجراح

شافه الولد ضحك أوي

لبنت في عينيها البراح

لأفيق على ضوء سيارة آتية من الاتجاه المعاكس بسرعة وقوة، أحاول تفاديها بعد فوات الأوان، تصادم قوي يحدث ،انزلاق لعجلة القيادة، وجسد مسجى مُضرَّج بدمائه، خلف مقود لا أحد منه يقترب، وسيارة تغلفه، ما تلبث أن تنفجر لتتحول إلى فرن بركاني بشري في بضع دقائق قليلة، تأتي الشرطة والإسعاف بعد فوات الأوان ليتصدر العنوان في جميع الجرائد الرسمية: "مصرع المحامي الشهير حازم الغمراوي في حادث سيارة مروع" .

* * *

كعادتها تستيقظ صباحًا في التاسعة تمامًا، تبدأ يومها بوجه مشرق ورداء يزيدها جمالًا على جمال، آلهة فرعونية كلما تعامدت الشمس على وجهها أنارت الدنيا وزادت الشمس إشراقًا على إشراق، بل هي الشمس بذاتها، واليوم يبدأ بإيماءة من أهدابها، بل تراقص رقيق يحاكي مس الهواء لريشة، استيقظت هذا اليوم قبل موعدها ببضع دقائق لا تدري لمَ هاجس غريب داهمها ؟! وظلت تطرده، ولذا لم تغادر تختها إلا

عند التاسعة؛ لتقوم بطقوسها الاعتيادية انتهاءً بتبديل ملابسها لترتدي هذا الصباح ذلك الرداء الأبيض الذي كان قد اختاره لها قائلًا:

- لا تخشي الأبيض أيتها البرونزية الطلة، ارتديه ليعانق شهد بشرتك وتداعبه سافانا عينيك الفرعونية، ولكن لا تنسي قلادتي، لتذهب إلى مرآتها وتنظر طويلًا إلى تلك العلبة الزرقاء مخملية الملمس لتلتقطها في خفة ونشوة لتخرج ما بها واضعة إياه على عنقها وهي تتخيله مَن يضعه لها، لتدور كطفلة في السابعة تحمل حلواها المفضلة ودميتها الأثيرة، تراه يغمز لها من ركن المرآة الأيمن بعلامة الجمال والجودة .. تتقافز ضاحكة، خجلى، لتراه مرة ثانية يشير إلى تاجها الذهبي كي تسدله كاملًا، ليعود ثانية فيرفع أصبعه بإشارة إلى أحد جانبي موجات الذهب الراقصة لترفعها بدبوس الشعر الذهبي على شكل زهرة اللوتس كما كان يشبهها بها ، أجل، كان يحب شعرها، كذلك موجات تسلب عقلك وشمس تطل بجزء وتخفي جزءًا حرصًا على من حولها من وهج إشراقاتها الدافئة.

– لا تدعي جمالك كاملًا تسرقه الأعين المتلصصة، بل خبئي بعضه لمن يستحق، واسلبي البقية عقولهم بقليله، واعلمي أن الغموض أشهى من المعروض كاملًا في كل شيء وليس فقط الجمال، تلك نصيحتي لك أيتها الصغيرة والمليكة الفرعونية.

آه مازال يحاوطها طيفه حتى في الغياب، غياب؟! من قال إنه غائب؟ إنه حاضر في كل شيء.. تبتسم في رضا له .. أمامها هو في كل وقت ومعها دائمًا.

تعود لمرآتها لتكمل زينتها، بعض من ملمع الشفاه بلون الخوخ ولمسات من ظلال الجفون بلون ذهب قلادتها، ولكن على استيحاء لترسم العين في قوة وجرأة كقطة فرعونية بذلك القلم الأسود، لتصير العين مثلث برمودا، ذلك الذي يختفي عنده الكثير ولا يعودون ثانية، لتنطلق على درجات السلم منادية لخادمتها الخاصة طالبة الإسراع بتجهيز الإفطار والسؤال عن والدها وحاله، فتجيبها:

– مستقيظ منذ ساعة ويجلس في شرفة غرفته على غير العادة كأنما ينتظر شيئًا ما.. تصرفها بهدوء فتنصاع لها و تعود سريعًا مخبرة إياها بوصول

بريد لها ولوالدها على غير العادة، وعند سؤالها عن مقصدها ؟ تخبرها بكونه بريدًا شخصيًّا وليس بنكيًّا، تصمت برهة صغيرة تنهيها بقولها:

- فلتأتِ به على الإفطار ومعه صحف اليوم، آه، ولكن انتظري، أريد الإفطار اليوم في الحديقة.. تطيعها وتخرج مسرعة إلى المطبخ لتنفذ ما أمرت به، تفتح المذياع على إذاعة الأغاني ليصدح بأغنية "ولا عمرك وحشتيني" للفنان "إيمان البحر درويش".

يا لك من رجل تجعل كل الكون يؤكد وجودك! عجيب حبك! إنك تَسْكُنُني..أسمعك في كل خلية مني وأراك في انعكاس وجهي وظلي أنت .. كلا بل أنا انعكاس لك، لا، بالفعل لا أدري، ما أدريه فقط أنك ساحر، تجعل المستحيل ممكنًا، جُهز الإفطار، وها أنا أسمع الآن نداء خادمتي ،فأركض إلى الشرفة الخاصة بغرفة والدي فأراه في مدخلها، يهم بالدخول كأن كلًّا منَّا مع الآخر على موعد، أمد يدي ويلتقطها دون مجادلات وخلافات متطايرة الشرر كالعادة، لأشعر لأول مرة بحنان الأبوة ودفئها يتسلل حتى يلامس روحي وعظامي، أتأرجح مع تأرجح قلبي على دفء قلبه وأمانه، فأشعر أني وردة متفتحة يداعبها

النسيم، ويقدر إن زاد على قتلها من هول رقتها، ولكني لا أخاف؛ فمعي عتادي وشوكي وسيفي البتار، أبي، أبي، أبي، أحبك، ما هذا؟ إنه يلتهم أصابعي بعناق أصابعه، أسمعت أُذُن يده حوار قلبي وروحي وحديثهما؟! أم إنها أصابعي وشت بكل شيء حوار صراحة بين شبيهين ؟ نبدأ وجبة إفطارنا بشهي المشاعر ودافئها، لنصل إلى الحديقة، ونحن ممتلئ القلوب لننتقل لامتلاء تلك النهمة، المعدة، ولكن ما تلبث أن تقترب منا حاملة ما أخبرتني عنه، أجل إنها الرسائل، رسالة لكل منا، وبجانب كُلٍّ منا نسختان من صحف اليوم، لنجد كل منا يلتقط رسالته في سرعة وحركة لا إرادية ممزقين الأظرف وصولًا لما تحويه، فنبدأ المطالعة في فضول ثم دهشة، فحزن، فتوتر، فبعض من خوف، رسالتي:

"طفلتي، مليكتي، حبيبتي، شقيقتي، أجل شقيقتي، لم تخدعك عيناك، إنك شقيقتي منذ أول يوم رأيتك فيه، بل أول لحظة، وكان هناك ما يشدني إليك ويربطني بك.

رأيت فيك الطفلة قبل الأنثى ...عشقتها ... ذبت وهمت بها، كنتِ توقظين الأب بداخلي ، والطفل والعاشق .. معك أشعر بألوان من

مشاعر مذهلة ولكنها دومًا مختلفة وكاسحة تحركها الطفلة وتؤججها، أجل يا سمر، لم تكن إثارة واشتهاء رجل وأنثى، بل طفلة تائهة وأنا بوصلتها ووالدها، كان يحيرني ذلك رغم حسنك الفائق والقاتل، لم تشاغبني سوى الطفلة، أسرتني وسحرتني وملكت كل خلية بي، أعلم أنه بداخلكِ قد تشوشت المشاعر، ورأيت بي فارسك ونصفك، بل وحبك المنتظر، لكني أعلم أيضًا أن بداخلك كان هناك صوت آخر يقول أشياء أخرى، ولكنك نشأتِ وألفتِ إسكاته ، لقد وُضعتِ خلف قضبان والدك ووالدتك،إن صوت القلب خطأ أن يُسمع، ولكن إذا لم نسمع هذا الصوت فمن نسمع؟! لا أقول لك دعيه يقود حياتك، ولكني أيضًا أقول لك لا تدعي حياتك تمضي دونه ودون همسه الصادق صدقيني، متى تصالحتِ مع نفسك وكينونتك أيًّا كانت صدق قلبك وصاب رأيه وحسن صوته وصلحت حياتك، إنني علمت حقيقتك من الوهلة الأولى بقلبي، أما عقلي فكان ينتظر الأدلة والحقائق الملموسة ليصرح بما أقره القلب، وها أنا الآن أعلمك بما شعرت به نحوك، وأضع بين يديك الأدلة.

قد تندهشين من نصيحتي، كيف أنصحك باستخدامه وسماعه وهو من جعلك تشعرين ما تشعرين به نحوي؟! إن قلبك يغني ويصرخ ويرقص، ولكنك دومًا ترينه من خلف غيوم وسدود، تسمعين بكاءه ضحكات وسقوطه خطوات راقصة.

الآن دعينا منه فأنا أثق أنه من اليوم سيكون عصفورًا وأنتِ غصنه وعشه، سماء وأنتِ قمرها، حبيبتي الأولى والأخيرة، وطفلتي الأغلى، سأغيب عنك بضع أيام، لا تخافي أو تجزعي، إليكِ سأعود ولكن بعد أن تطيب روحي ويطيب قلبي، فما علمته الأيام السابقة وخبرته أنهك كل قواي، وأنا أريد أن أستعيدها وأعود إليك كما كنت دائمًا.

لا، ليس الآن، سأنهار بين يديك وأقوم وأجرح وتضمدني بسمتك، ولكن ليس تلك المرة، فكلانا منهك، مقسوم، مفتت، وقربنا سيزيدنا تفتتًا وقد يحطمنا بلا رجعة وأنا لا أريد ذلك، لا أريد أن أضيعك بعدما وجدتك، وأعدك أني دومًا سأكون معك، دماءك، ظلك، روحك، ملاكك الحارس، وعصفور نافذتك، ووردة خدك، وقيثارة شفتيك وشهدها، سأكون درعك وحلمك وواحتك الآمنة يا حقول

القمح بصحراء قلبي ومدينة الشمس لروحي التائهة، يا بحري وقمري ومليكتي الفرعونية وقطتي البرونزية وطفلتي الجويرية الجنونية وكلمة الحب الرائعة أحبك، حبًّا يكتب على الأفئدة والمآقي بماء الذهب، ويُحكى للغادي والآتي، والقرى والبوادي، فيكون العجب، غصن ياسمين وضحكة وعنقود عنب يتيهون في رقصة قوامها شمس وقمر وكثيرالشهب على حافة القلب السابح في سماء سابعة يداعب السحب.

أعدك أنا الرجل الذي إذا وعد فعل، ولكل قيد كسر، كوني أنا وليس انعكاسًا لي ، ليطيب جرحي وعيشي وتكون الحياة".

إمضاء

حازم / عمر

* * *

على الجانب الآخر، رسالة أخرى تُقرأ، وغشاوة تُزال، وجرح يُفتح لينظف قيحه دون مسكن ولو قليلًا منه :

"لا أدري بماذا أناديك بعد ما كان وما عشته الليالي والأيام والساعات والثواني الماضية ؟ ولكن لا يهم، سأدع قلبي يختار ما يشاء ويكتب ما يريد دون قيود أو قضبان مني، أو من ذاك الناري الساكن برأسي، فأنا دائمًا ممن يكسرون القواعد والقيود والقضبان ويصنعون هم اللاحدود أو القاعدة، فأنا صانع وآمر ولست مأمورًا أو تابعًا ولذا سيكون قلبي مثلي، بل سأجعله مستقلًّا عني، ليكون أنا، الحقيقة عارية، ألم تنطقها وتخبرني بها سابقًا؟ الآن حان دورك لسماعها عارية ولن أكون معك، وحدك ستعلمها وتقبلها وترزح تحت نيرها ونيرانها وحيدًا حائرًا مشتتًا مكسورًا،و لا أبالغ إن قلت: محطمًا ضعيفًا أوربما قوياً تلك لا أدريها ولكنك ستعي ما أقول جيداً ، سترى الصورة كاملة واضحة، وقبلها نفسك عارية من خيلائها وعنفوانها وقشورها الكاذبة، بداية من كونك جانيًا وقاتلًا أعمى، لا تملك رحمة ولا بصيرة، عذرًا على ما أقول، ولكنها الحقيقة الدامية.

أتدري لمَ؟ سمر تلك الوردة والشوكة والضحية التي عاشت دور الجاني عمرًا كاملا ودفعت وتدفع وستدفع دومًا من جراء فعالك القاتمة، أجل سمر، سمر ابنتك أيها الضحية المسكينة، ابنتك من دمك وصلبك، جوهرتك التي تحرص دائمًا على فقدانها ملامحها، إنها أجمل ما فيها، إنها دليل براءة وليس إدانة، فتى أخطأ وتاب وأناب وتبرأ وتجرد من كل ما كان، وتحرر ورغم تحرره ظل حبيس قضبان مجتمعه وشقيقته الأغلى الحبيسة هي الأخرى خلف تمثال بنته لها روحها وحسبها ونسبها أمامك، تمثال يجب أن يظل براقًا دون خدش، سليلة كبرى العائلات وأعرقها نسبًا، جعلها تختال كبرياء وعظمة أمامك وجعلك تخشاها وتخشى تلك الهالة، فكان لا بد أن تظل تلك النقطة السوداء خافية على كل الأعين، بقعة سوداء يجب أن تمحى من على ثوب ناصع البياض، ولكن أي ثوب وأي بياض يجعل شقيقًا يحيا حياة الهرب والخوف لخطأ صغير؟! بل هو طيش شباب ليس إلا، ودفع ثمنه جيدًا، لم يهرب ويتملص منه كغيره، ولكن المجتمع وشقيقته والمظاهر الكاذبة والحب الأخوي وأنت جعلته يتلاشى ويموت حيًّا دون احتجاج أو ثورة، أجل

ملامح سمر هي ملامح خالها الذي رغم كل ما كان منكم من قتل له عاد للحياة مرة أخرى فيها، في ملامحها البرونزية والطلة الفرعونية الآثرة، كأنما القدر والحياة تقول لكم كفى، كفى ما كان منكم، ألم يحن موعد العتق والتحرر من تلك القضبان الواهية؟! لكن أبدًا، صُمت قلوبكم وآذانكم، حتى حبها لي شقيقة لشقيقها وأدته بصلفك وعنتك.

لمَ على الأبناء أن يدفعوا ثمن ما اقترفه الآباء من آثام وخطايا ؟! ألأنها ليست ابنتك؟ إنها حتى تلك اللحظة كانت ما تزال ابنتك، لم يدخل الشك إليك في ملامحها وفيها، فقط هي أفعال والدتها، وحتى والدتها أعلمك أنها بريئة من دم والدتي براءة تامة، ولكن قسوتك وتحميلها ذنب هذا المصاب وقيامك بأخذ الثأر منها ومن ابنتها دون ذنب حدث أو فعل يستحق جعل منها وحشًا أعمى، نيرانًا لا تطلب سوى المزيد والمزيد من البشر والقلوب ليكونوا حطبها ورمادها، "إسفنجًا" يمتلئ ويمتلئ، بحرًا يحمل الكثير ولا يكل ولا يتعب ليدفع كلانا الثمن، أنا وسمر، ثمنًا بحجم عمرينا كاملين، بكل لحظة فيهما، وكل بعد لأحدنا عن الآخر.

أجل، حرمتني شقيقتي يا أبي، حرمتني شقيقتي وطفلتي وحبي الأول والأخير، ليس الحب الذي كنت تحذرني منه؛ بل حب آخر لا تعلمه ولن تعلمه، إنني علمت أنها شقيقتي منذ الوهلة الأولى، وأنت أمامها، ومحض رسالة صغيرة جعلتك تقتلها بدل المرة مرات... ملايين المرات! بل تفُوق قدرتي على العد، كم عمري؟ كم عمرها؟ إنني لم أعرفها سوى من أشهر قليلة، وقلبت كياني وروحي رأسًا على عقب، فماذا لو كنا معًا طيلة أعمارنا السابقة، وأنت، أنت أيها الأب الرائع، أتدري ما حرمت نفسك منه؟ لقد حطمت أسرة كاملة وأنت على رأسها، أنثى، طفلة، زوجة كانت يمكن أن تكون أمًّا لطفلين وليس لطفلة واحدة، وتحرص على رضائك منعًا لكارثة ثانية أو شريكة جديدة، وأب وزوج ينعم بحياة أسرية سليمة تملؤها الزهور، وعطرها الأخاذ، بل زهرتان لا زهرة واحدة، وحتى الزهرة الواحدة قد أذبلتها بيديك ..جعلتها تبحث عنك في كل من حولها، لتخطئ بزيجة ذبحتها بدل أن تضمدها فعادت إليك علها تجدك هذه المرة، لكن كالعادة وجدت سرابًا، سيفًا يطعن دون رؤية أو روية.

إنني أحبك فوق كل تصور، أحبك، أجل أحبك، وأحبك رغم ما كان، ولكن طفلتي الصغيرة ماذا عنها؟ أريد أن تعود الطفلة التائهة إلينا، أريدها طفلة هانئة تحمل كيس حلواها، أريد سمر الصغيرة الباسمة أيها الجاني الذي عاش دور الضحية وأعاش الضحية دوره وجعلها ترى نفسها بعينه الظالمة جانية.

أعد القطع إلى مكانها الصحيح على رقعة القدر، وادفع ثمن آثامك، تتساءل كيف؟! أعدها إلى قلبك، أرجوك أن ترى طفولتها الصارخة وجروحها الصامتة الباكية أمام قلبي ،أبي، سمر هي أنا، عمر طفل رغم كل ما لديه ظل يبحث عن شيء ينقصه لا يعلمه، شيء جعله رغم كل ما لديه لا يملك شيئًا، أعدها لأعود، أعد سمر وخالها إلى الحياة فكلاهما ضحية لي ولك، أجل، وجودي كان سببًا فيما حدث لهما، ولذا سأبتعد حتى تتعلم أن تحرر قلبك من قضبان حبي وحتى أتحرر أنا من قضبان ألمي بك ولك ولها، لا تدعها تضيع مثلما ضاعت أمي، إنني أحيا بها ولها هي أنا ،إني أتنفس أمومتها الحانية وطفولتها النزقة واللاذعة كثمرة فلفل، والناعمة كملكة ليل في ربيعها، والدافئة كشمس

ناعسة، والشهدية كحبات كرز تبحث عن عاشق لها، إنها بوصلتي وبيتي وسلامي وأمني، إنها قطعتي الناقصة وهي تراني مثلما أراها وأكثر فأحرص عليها في غيابي لأنها ستكون في أضعف حالاتها".

يلتفت ويفيق كمال البنهاوي على صرخة مدويّة وسقوط، أو بالأحرى تهشم بدر من كريستال، أجل سمر، لقد قرأتْ رسالتها ليسقط مع انتهائها منها الجريدة على خبر موت عمر/ حازم الغمراوي شقيقها، لتصرخ وتبكي، العاشق والأخ والأمن والدفء، لتظل تصرخ وتبكي حتى مع سقوطها كأنما تبكي روحها الذاهبة مع ذهابه، لقد رآها كمال، إنها لا تبكي، إنها تموت، تصعد روحها تدريجيًّا لتنهار كل حصونه في ثوانٍ بل مع صرخاتها، ليصير هو الآخر حطامًا، لقد أبصر، ولكن متأخرًا، إنها تعشقه أكثر منه، إنها أم عقيم تبكي وليدها الذي من الله عليها به بعد عمر من حرمان، تذكر كل شيء ، مر شريط جريمته أمامه، حبها الأمومي لشقيقها في صغره، منذ رأته عيناها وحرمانها منه وحرمانه منها، لقد أماتها مرة وها هي تموت ثانية، لقد رأى الجريدة ولكن ما رآه منها جعله يركع بجوارها باكيًا في صمت، كيان ..إنسان

وعمر يحترق في مكانه ويتحول إلى رماد في أقل من دقيقة من الزمن لتتردد كلمات عمر ورسالته في كل أرجائه.. جاني، أعمى بلا رحمة.

إنها تحبني وأنا أيضًا أحبها، أعد إليَّ الطفلة، الوردة، وكن قويًّا من أجلها وأجلي، لا تدعها تضيع مرة ثانية، لا تدعها تضيع مرة ثانية، ليجد نفسه يهدر على كل من بالڤيلا للإتيان بالإسعاف فورًا، وهاتفه ليجد أصابعه تقوم بما عليها تلقائيًّا، اتصالات متتالية بطبيب العائلة وكل من يعلمهم من أطباء وأصحاب مستشفيات خاصة، كل ذلك ويده تطمئن على نبضها وحالها في سرعة ودقة، وصولًا إلى حملها في حنو وتحنان بالغ، لقد أفاق قلبه بعد عمر من موات، ليجد نفسه هو الآخر عاشقًا لها يخشى فقدها، كم نحن أغبياء وبُلهاء، إن من نضمن وجودهم وغفرانهم وتسامحهم تتيبس قلوبنا ومشاعرنا تجاههم، ليصير وجودهم حقًّا مكتسبًا ودائمًا دون مجهود أو بذل ما يجب ولو من قليل المشاعر والاهتمام، لنفيق على رحيلهم القدري أو الإرادي منهم بعد يأسهم منا ونفاد صبرهم علينا وعلى قبيح أفعالنا، بعد استنفاد طاقتهم في احتمال ألم، قاسي أفعالنا أو انعدامها نهائيًّا.

آه يا عمري، يا وجعي، يا جرحي الدامي، ونور الصباح الذي عميت كل حواسي عنه ليظل يهدهدها، طفلة في مهدها على أنغام بوحه بما يجيش به صدره وقلبه لها، وهي غائبة عنه في عالم آخر، تتمنى ألا تتركه، فهو معها، يحاوطها، يشاغبها ويداعبها ويدللها، لترد له الصاع صاعين في مزح وحنان وعناق أمومي، عمر، عمر، عمر لقد وجدتك وأضعتك، أم إن الدنيا ما زالت تعاقبني؟! لكني سأنتصر عليها، ها أنا معك في عالم آخر ولن أتركك ثانية، هنا أب يعيد آخر حبل يربطه بالحياة وهناك طفلة تتمسك بخيط من وهم ولكنه لديها هو كل الحياة، بل الحياة نفسها في أبهى أثوابها.

تصل عربة الإسعاف والأطباء جميعهم يقتربون لأخذها منه والقيام بما يجب وهو كطفل متشبث بدميته المفضلة لا يريد تركها، قد يترك الحياة ولا يتركها والجميع واقفون حائرون لا يدرون ماذا يفعلون، يتقدم طبيب العائلة وصديقه وأول الواصلين والناظرين لما يحدث بعين الأب لا الطبيب، ليقترب من كتفه ويحاوطه بذراعيه في حنان وصمت وتفهم يليه همس له:

- كمال، لن أقول لك لا تحزن أو لا تنهار، ولكن سأقول لك كن قويًّا لأجلها، وكن مثابرًا ودعنا نقوم بما علينا من أجلك أنت لا أجلها، لكي لا تبحث حولك فلا تجدها، دعنا نعيد زهرتك إليك متفتحة شهية كما عهدناها وعهدتها، ولا تكن كمن أعماه عشقه فقتل من وُجد قلبه لهواها وعشقها، لا تكن هذا الدب الذي قتل صاحبه، أعدك ستعود سمر لك، ولكن حتى أفي بهذا الوعد دعها لنا.

ينتقل من مرحلة التشبث والقبضة الحديدية إلى الاستسلام لضربات القدر، استسلام تتراقص به شمعة من أمل لا تخبو ولن تخبو، فهي تأبى الإنطفاء رغم كل ما حولها، ليربت على كتفه وكأنما نطق بكلمة افتح يا سمسم، ليقبل هو عليهم واضعًا إياها بين أيديهم، ولكن دون أن تغيب عن ناظريه أو يرفع عينه، روحه، قلبه عنها، ليبدأوا بعمل ما عليهم من إسعافات أولية، وصولًا إلى ضرورة نقلها إلى المشفى؛ فهي مصابة بصدمة نفسية شديدة، فينطق أخيرًا : فلتحملها عربة الإسعاف المجهزة إلى مشفى السلام، أجل، اختار هو أن يدعها تحت يد صديقه وطبيب العائلة، من رآها بعين الأب لا الطبيب، ليبدأ رحلة علاجها

وشفائها وعودتها إليه وعودة نفسه أيضًا، أجل، لم يُحمّلها كما في السابق مصابه وضربات القدر له؛ بل رأى فيها نفسه، مصابها مصابه، جرحها جرحه بل أعمق وأعمق.

مرت فترة تقارب الثلاث سنوات عادت فيها سمر الصغيرة ووجدت أباها بعد عمر من التيه والفقد، وعاد خالها أيضًا للحياة ولها بعد عمر خلف القضبان، بل وأصبحت عمة حازم أو من ظنها، عمة لسمر وأمًّا لها، تلك الباعثة للرسالة والمفجرة لكل ما كان، وطرف الخيط بخطها الذي أزال كل التباس وأوضح قواعد اللعبة أمام عمر، لم يرفضوها، فهي مثلهم كان قضبانها مسؤولية ألقاها أخوها عليها، ونزعة أم صحت أمام عينين بلون البحر، لتكون لهما ولذلك الصغير دنياه وأمه وحاميه، أجل، تكونت أسرة جديدة قوامها طفلة ووالداها واثنان جعل منهما القدر أمًّا وأبًا، ومسيحًا يحمل الخطايا عن الجميع ليعودوا إلى الحياة مع أريج زهرة تفتحت بهم ولهم.

لقد كانت ترى فيها عمر وتشتمُّ أريجه في أنفاسها، وتسمع صوته في قليل حديثها أو كثيره، وهذا الفرعوني الطلة معه رأت أمها تتهادى بثقتها وشمسها، ورأت نفسها في سافانا عينيه، أما عمر فكان دائمًا معها كما سمعت الأغنية في ذلك اليوم..

وتقولي هتوحشيني ازاي

وصورتك نن في عيوني؟!

* * *

في بدايات نوفمبر، موعد ميلاد سمر، كان دائمًا هناك ذلك المعجب المجهول الذي يأتي بباقات اللوتس الأزرق، وحتى طوال فترة مكوثها في المشفى من ذلك الحانوت الصغير الذي لا يعرفه الكثير، لتلحظه مالكة المكان وتظل تنظر إليه طويلًا بمعطفه وياقته المرفوعة وذلك العطر القوي الذي لم ولن تنساه، لتكسر اندهاشها وتقترب منه لسؤاله هل هو من تظن؟ ليفاجئها بخروجه و السير مسرعًا كأنما فطن لها، فتحجبه هالات من بخار ودخان وعربات مسرعة وأمطار متتالية،

ليلقي بجملة لا يسمعها سواه، ها قد اكتمل بازل حياتي، ولكن دوني، لتصدح أغنية أصالة في أرجاء المكان بعد أن قام ولدها بتشغيلها:

مين فينا حدد لون عينيه؟!

ويوم ولادته واسمه إيه؟!

فيه حاجات كتير كده في الحياة

موجودة وما نعرفش ليه

زي طير مد الجناح

فوق الألم .. فوق الجراح

شافه الولد ضحك أوي

لبنت في عينيها البراح

وحاجات كتيركده في الحياة

طريق ولازم نمشى فيه

سبحانه هو اللى ابتداه

ولوحده عارف آخره إيه..

ليرددها كصوفي غارق في نوبة من انتشاء وصولًا إلى..

لوحده عارف آخره إيه، يرددها باكيًا مهشمًا

ولكن واقفًا يتفتح على شفتيه برعم بسمة فرعونية الطلة، غارقًا في الأمطار، وممسكًا تلك الباقة.

* * *

شكر خاص

أسرتي الغالية :أبي وأمي وشقيقي حاتم وشقيقتي دينا

المبدع/ محمود سلام أبومالك . الفنان / محمد دربالة .

الراقي / جمال عبد الرحيم . أستاذي / شكري دعبس.

أحمد النحاس شيماء علي حسن علي .

أحلام محسن . مينا عاطف . إيمان محمد .

فارس علي . نوران مجدي . محمد شريشر .

سارة محمد . هيثم مصطفي . هبة حمادة .

هيثم بيومي . مها عبد الفتاح . دينا عصام .

شاهندة عصام . سمر إبراهيم . ميرنا نصار .

باسم محمد . أحمد حسن . الغالي / أحمد الصباغ

المميزة / شيرين عابدين الرائع / الباشا عبد الباسط .

الغالية / شاهندة الزيات .

وأخيرًا وليس آخرًا/ محمد عبد الحميد العُرْضِي .